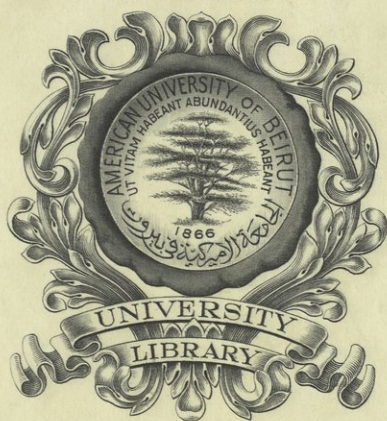


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

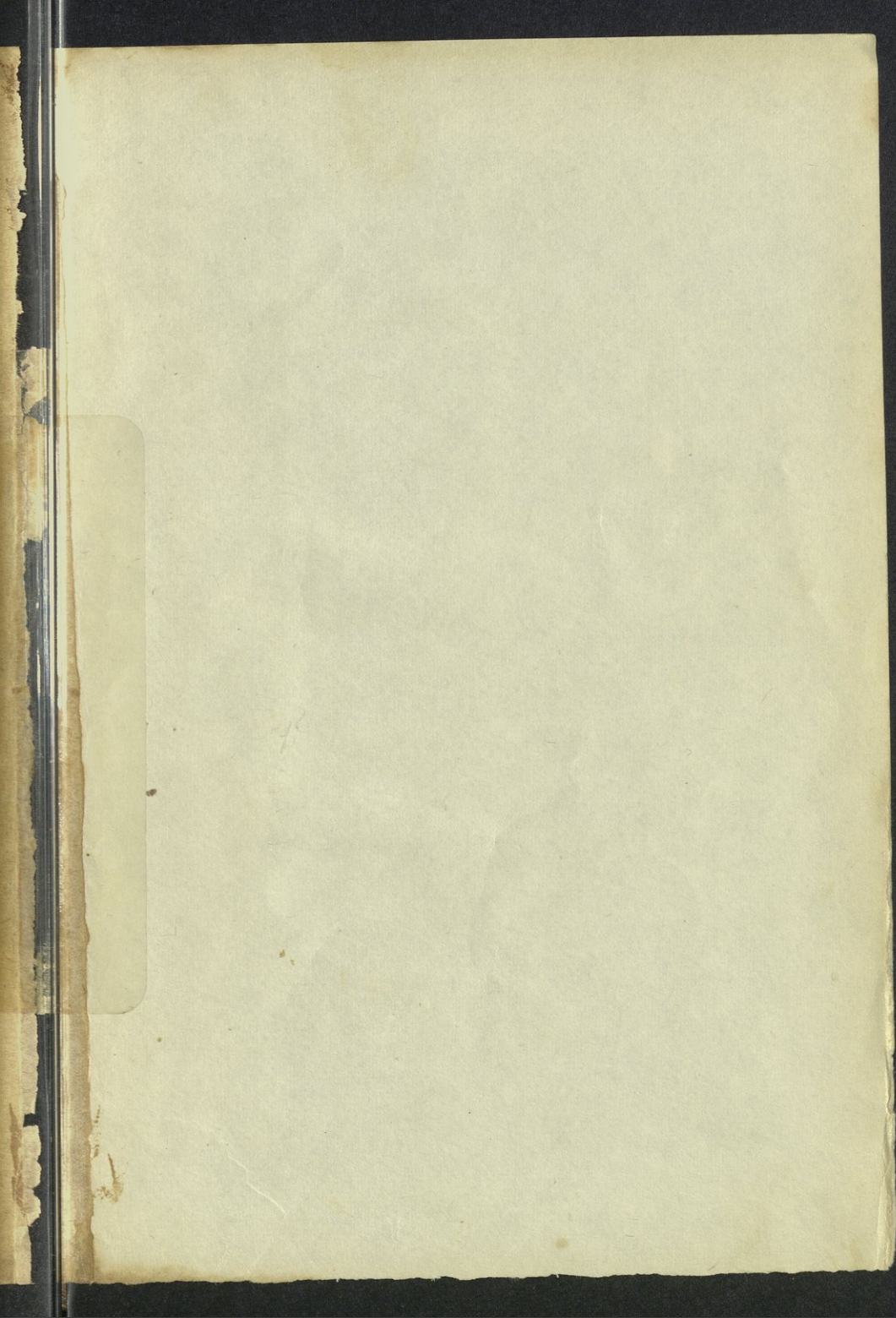


تجليد صالح الدقر
٧٢٩٧٧ تلفون

٨٢١٩

٦٢ ع ٥٢ ع
الأيدي سعاد

الضامه ع ٢ الفان



52

طه حسين



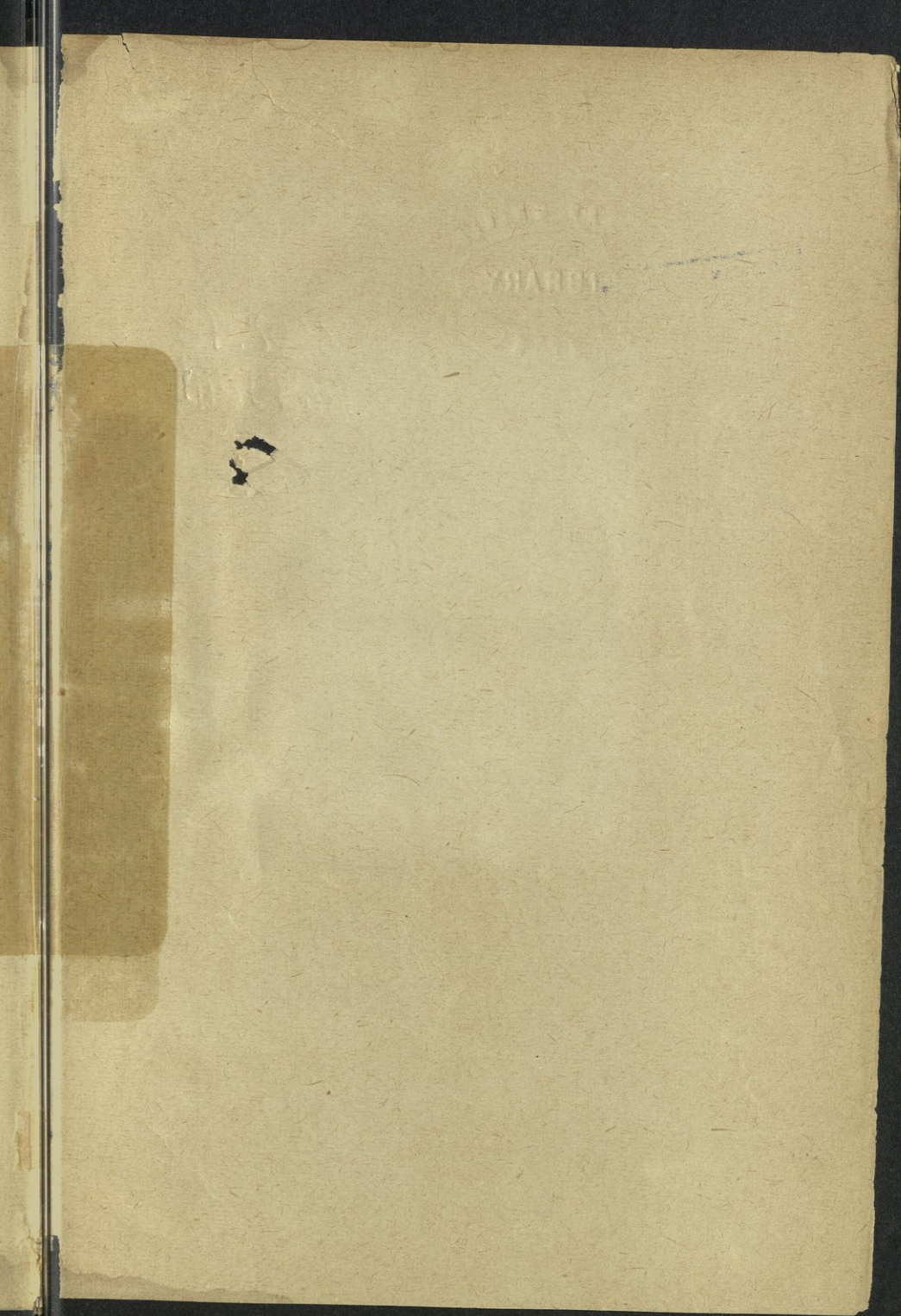
892.78

Ha39243 (4)

دُعَاءُ الْكَرَوَانِ



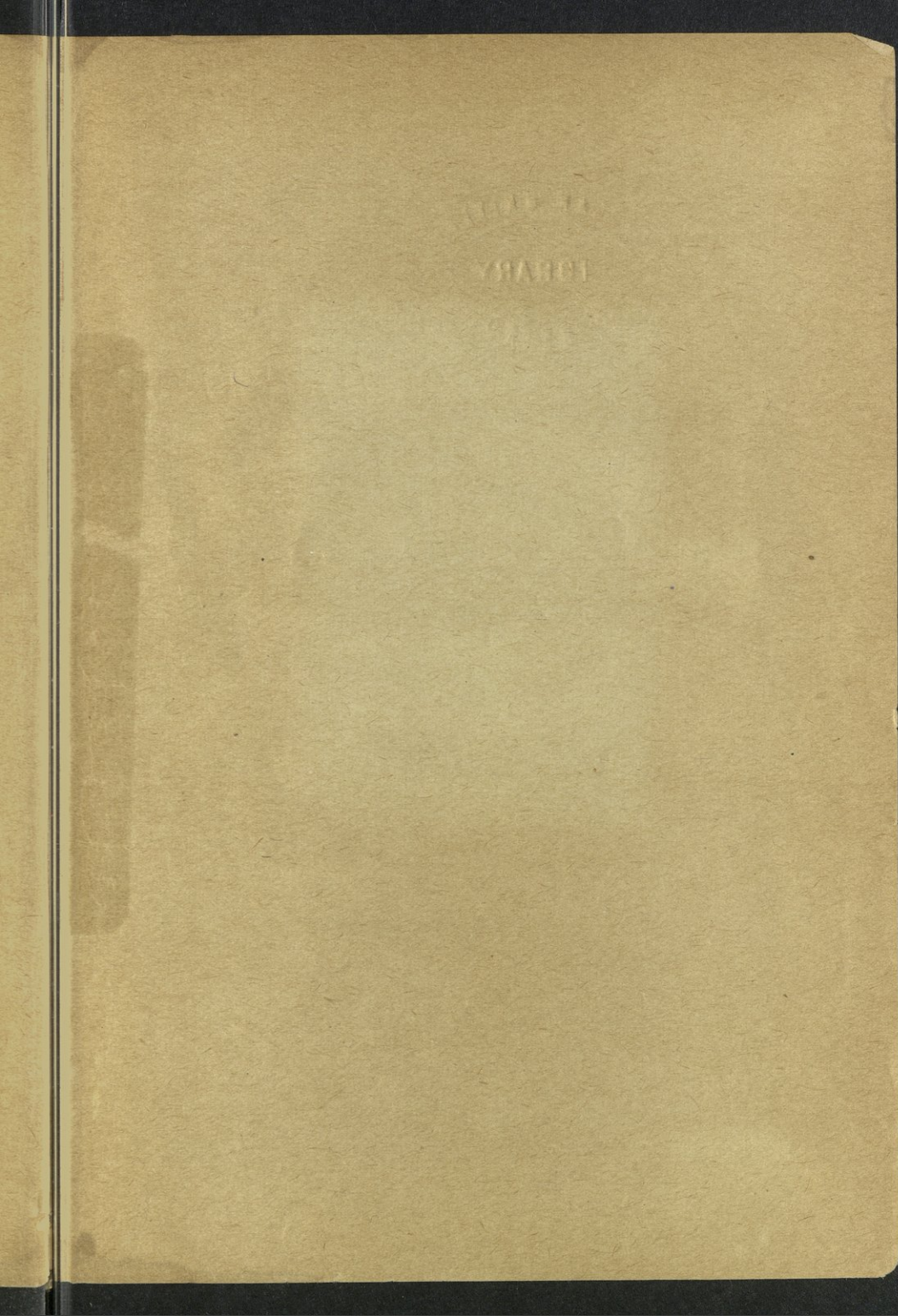
مكتبة الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



إلى صديقي الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد
سيدي الأستاذ

أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً في الشعر العربي
الحديث ، فهل تأذن في أن أتخذ له عشاً متواضعاً في
النثر العربي الحديث ، وأن أهدي إليك هذه القصة
تحية خالصة من صديق مخلص .

طه حسين



أتيح لهذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا
العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأهدى
إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً منه أتقبله
فخوراً شكوراً . وأكره أن أوثر به
نفسى من دون الذين يحبون الشعر الرفيع
بل أكره أن يحملنى التواضع الكاذب على
إخفاء هذه المكرمة التى إن صورت شيئاً
فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاءُ هَذَا الْكَرْوَانِ الَّذِي

خَلَّدَتْهُ فِي مَسْمَعِ الدَّهْرِ

لَهُ صَدَى فِي الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

أَشْبَى مَتَاعَ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

لَكِنَّهُ مُشَجَّجٌ بِتَرْجِيْعِهِ

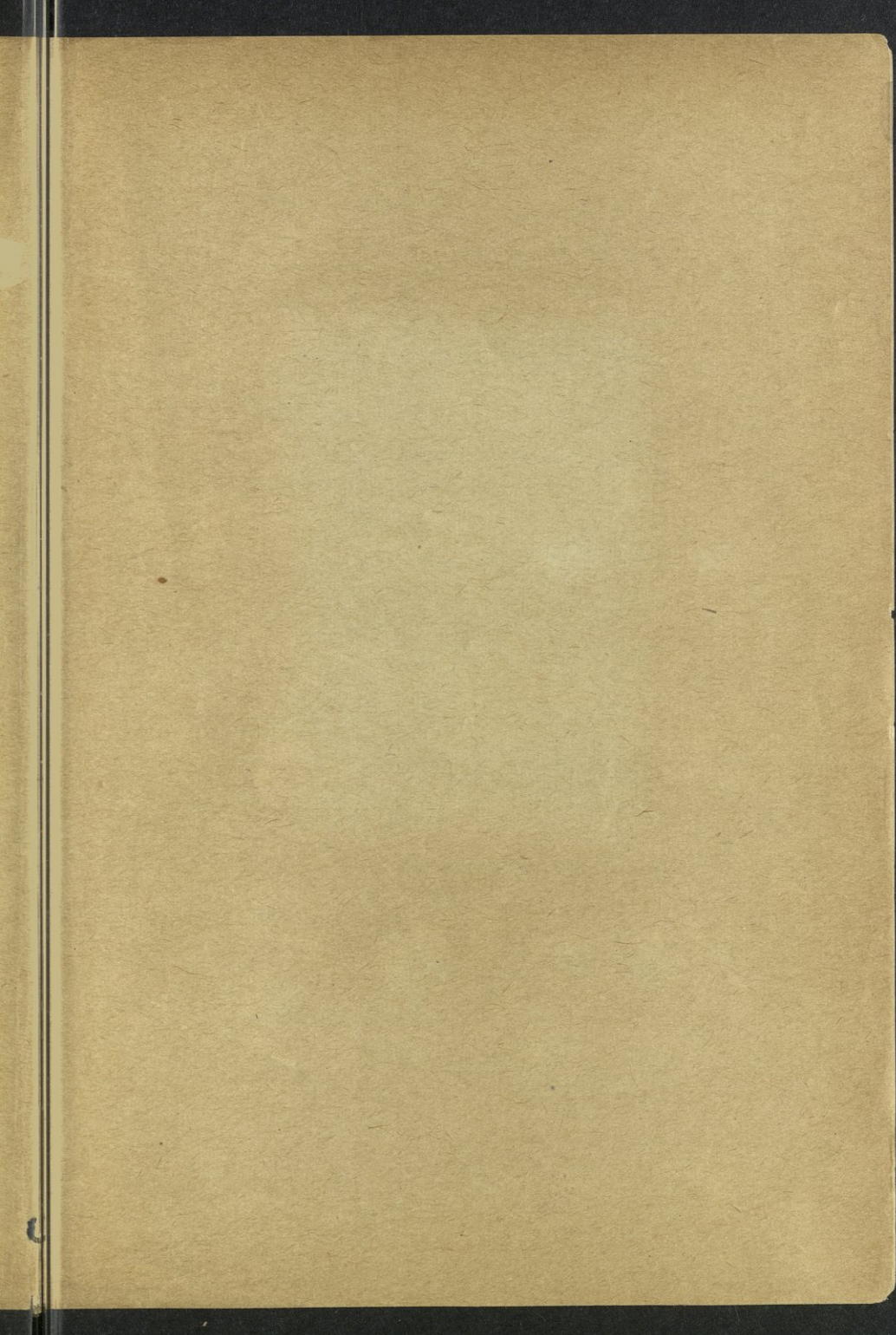
لَمَّا جَرَى فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ

إِذْ تَسْكُنُ الْبَيْدَاءُ وَهَنًا فَمَا

يَنْبُضُ إِلَّا مُهَجُّ السَّفْرِ

والليلُ في التيه السحيق المدَى
يُطبقُ جَفْنِيه على وِزْرِ
والطائرُ المرتاعُ في جَوْه
يُنذرُ بالمأساة في ذُعْرِ
يَرْن إِرْنانَ سهامٍ رَمَتْ
حيثُ رَمَتْ بالشَّعْلِ الحَمْرِ
أَسالَ دَمْعِي خَطْبُ مَطْلُولَةٍ
مقتولة في زَهْرَةِ العَمْرِ
جَنَى عَلَيْهَا وَاهِمٌ أَنَّهُ
يَثَارُ لِلْعَرَضِ وَلِلطَّهْرِ
وخامرتني حَسْرَةٌ خَامَرْتُ
شُهودَ ذاكِ المَصْرَعِ الشُّكْرِ
أليسَ للأرواحِ في بَثِّهَا
أواصرٌ من حيث لا تَدْرِي
جَوهرُها فَرْدٌ وإِحساسُها
مُشْتَرِكٌ في النِّفْعِ وَالضَّرِّ
حادثة في ريفِ مِصْرٍ جَرَتْ
ومثُلُها في الرِّيفِ كم يَجْرِي

قُضِّتْ عَلَيْنَا قَصَصًا شَائِقًا
 فِي كَلِمٍ أَتَقَى مِنَ الْقَطْرِ
 مَسْرُودَةٌ سَرْدًا عَلَى صَفْوَةٍ
 أَفْعَلُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْحَمْرِ
 يَا لُغَةَ الْعَرَبِ الَّتِي كَاشَفْتُ
 طَهَ بِمَا صَانَتْ مِنَ السَّرِّ
 مِنْ أَى رَوْضٍ يُجْتَنَى مِثْلُ مَا
 جَنَاهُ مِنْ أَزْهَارِكَ النَّضْرِ
 مِنْ أَى بَحْرِ وَالْمَنِ دُرَّهُ
 يُصَادُ مَا صَادَ مِنَ الدَّرِّ
 مِنْ أَى تَبَرٍ فِي غَوَالِي الْحَلَى
 يُصَاعُ مَا صَاعَ مِنَ التَّبَرِّ
 آيَاتُ طَهَ نَزَلَتْ بِالْهَدَى
 فِيمَ اسْتَعَارَتْ فِتْنَةَ السَّحْرِ
 أَحْدَثَتْ مَا جَاءَتْ بِهِ طُرُقُهُ
 بَدِيعَةٌ فِي أَدَبِ الْعَصْرِ
 جَلَّتْ خِيَالُ الشَّعْرِ فِي صُورَةٍ
 أَغَارَتْ الشَّعْرَ مِنَ النَّثْرِ



لم يكن يقدّر أنى سألقاه قائمة باسمه حين أقبل إلىّ فى ظلمة الليل
يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين
شخصى ماثلاً فى وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح
حتى أخذه شىء من الذعر ، فراجع خطوات تم قال فى صوت أبيض
جعل يأخذ صوته الطبيعى قليلاً قليلاً : ماذا ! ألا تزالين ساهرة إلى
الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثيه وما كان
ينبغى لى أن أنام قبل أن ينام سيدى ، فما يدرينى لعله يحتاج إلى شىء .
قال وقد عاد إلى ثباته وهذوء نفسه واسترد صوته شيئاً من قحته المألوفة
ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها
وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت
أرى من سبقك فى خدمتى ، وكنت أقدر أنى سأجد فى إيقاظك بعض
الجهد ؛ فلست أدرى ما بال نوم الخدم يتقل حتى كأنهم أموات .
قلت : قد أرحت سيدى من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت
منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل فى دورهم ، فليأمر
سيدى بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلىّ يداً وددت
لو استطعت قطعها ، ولكنى تراجعت حتى لا تبلغنى : فإن سيدك يأمرك
أن تتبعيه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في أثره .

* * *

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ، ما زلت ساهرة أقرب مقدمك وأنتظر نداءك ؛ وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ، وأستجيب لدعائك . ألم أعود هذا منذ أكثر من عشرين عاماً !

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ، ما أحبّ صوتك إلى نفسي إذا جثم الليل ، وهدأ الكون ، ونامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامته لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح ليدكرني روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ، أدن مني إن كان من أخلاقك الدنو ، وأنس إلى إن كان من خصالك الأنس إلى الناس ، واسمع مني وتحدث إليّ ، وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرّها عن تلك النفس الزكية التي أزهرت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك .

فلم نزد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك الفضاء العريض لكنها لم تبلغ أذنّاً ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً ،

ثم هيل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا
أستغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحيت ناحية وجلست
تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل متقدم في السن قد قام غير
بعيد يسوى الأرض ، ويصب عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم
ينتحي قليلا ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته
أمرأ أن هلم فقد آن لنا أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبينى أيها الطائر العزيز على أن نذكر
هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثار لهذه الفتاة التي غودرت في هذا
الفضاء ، ثم نذكر هذه المأساة كل ما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثأر ،
ليكون في ذكرنا إياها وفاء لهذه النفس التي أزهقت ، ولهذا الدم الذي
سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المجرم ورد الأمر إلى نصابه ،
وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب الرى حتى تظفر بالثأر من الذين
اعتدوا عليها .

لييك لبيك أيها الطائر العزيز ! إننا لالتقى كلما انتصف الليل منذ
أعوام وأعوام فندبر بيننا هذا الحديث ، أفقدنى أقص أطرافاً منه على
الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق ،
والدماء البريئة من أن تراق ؟ !

لقد بعد صوت الكروان قليلا قليلا حتى انقطع ولم يبلغنى منه شيء ،
وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل ، واطمأن من حولى كل شيء ،
فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه
الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين . . . وأنا آخذ
نفسى بالهدوء لألأتم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا فى
مشقة وعناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولى فى الغرفة فأرى ثراء ويسراً ،
وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ عيني إلى المرأة أمامى وأثبتها فى
أديمها الصافى الصقيل حيناً فتعود إلى " بصورة " إلا تكن رائعة بارعة ،
فإنها لا تخلو من رؤاء ونضرة وحسن تنسيق . وما لى أسأل عن صورة
هذه المرأة الجمادة الهامدة التى لا تحسّ شيئاً ولا تشعر بشيء ولا تعرب
عن شيء ، وإنى لأرى صورتى مرّات ومرّات فى غير مرآة من هذه المرايا
الحساسة الشاعرة البليغة التى تحسن الإفصاح عما فى النفوس وهى العيون !
لقد رأيت صورتى اليوم فى غير عين من هذه العيون التى كانت
ترمقنى مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى " قليلا " ، ثم تعود إلى مرة
أخرى فتثبت فى وجهى لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتى
فى هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآتمة لا أنكر
ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسى عن هذا الغرور
الذى يثيره فى المرأة إعجاب الناس بها وتهالكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسي ، وأمشي في غرفتي لحظة غير قصيرة ،
أذهب فيها وأجىء ، وأقف عندما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف
والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبةً به ولا مكبرةً له ، وإنما أسأل نفسي
أأنا : صاحبة هذا كله ؟ أأنا المالكة لهذا كله ؟ أأنا صاحبة هذه الصورة
التي تردّها إلى المرأة والتي كانت ترمقها العيون معجبةً حين كنت أتناول
الشاي في بعض مشاربه عصر اليوم ؟ !

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد
يبلغ ثلثيه ، أن أمدّ يدي إلى زرّ كهربائي قريب ، فلا أكاد أمسه حتى
يُطرق الباب ، ولا أكاد أرفع صوتي بالأذن حتى تدخل على خادم
وضيئة ، حسنة الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدم الليل لأنني
ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوي إلى مضجعها حتى آذن لها
بالنوم .

ثم أنا أمضي إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسي
روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجة ، وهذه
الأطيار التي تحلم في ثنايا الغصون . وكل هذا لي ملك خالص لا يشاركني
فيه أحد ، ولا يزاخني عليه أحد ، أستطيع أن أعبت به إن شئت ، ومتى
شئت ، وكيف شئت ، لا يسألني أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت في نفسي صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً
وثقة ؛ ثم لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغربية ؛ لأنني لا ألبث
أن أرى صورتي منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبية بائسة يائسة ،

قد شوه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيباً من الدمامة والقبج . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التي كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، والتي كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز .

إنّ في أحداث الحياة وخطوبها لعظاتٍ وعبراً ! إني لأتحدث الآن إلى نفسى حديثاً ما كان يمكن ولا ينتظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التي كان الناس يسمونها آمنة ، والتي تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والتظرف في الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية ، انحدرت بها وبأختها امرأة من أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه منبث في أطراف الأرض الحصبة مما يلي الصحراء الغربية أو مما يلي هذه الهضبات التي يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربى .

كانت زهرة أم آمنة وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية ، تقيم في قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب والتي لا يستقر أهلها فيها إلا ريثما يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يُقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار في الأرض والحياة في أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم يمحضون أمامهم مضياً بطيئاً ، ينتقلون في أناة ومهل من مكان إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدى ، وإذا هم على شاطئ القناة التي يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذى احتقرها في الزمن القديم . فإذا

أُتيح لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحتفظ ببدائته ، وأكثرهم ينفى في طبقات الزراع ويضيع في عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابي وابنتيهما في قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها في أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ، فقد كانت تسمى « بنى وركان » وكان أهل القرية ومن حولها يُميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الياء ، فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحون من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلاّ أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاجاً كثيراً ثقيلاً ، مُحفظاً لنفس البدوى الذى لم يتعود دعاية القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتيهما عيشة متواضعة هادئة ، فيها رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى كانت أمناً تنتسب إليها . ولكن أباناً لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة إنما كان زير نساء يحب الدعاية والمجون ، ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم . وكانت له في القرية وفي القرى المجاورة خطوب كانت تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمنا أشقى الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها في ذات نفسها — فكم حرقها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة

الكاملة - وتشفق منها على زوجها هذا الما جن ؛ فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهيء لنفسه عداوات خطيرة في كل مكان بإلحاحه في المجون والفجور . وتخاف منها على حياة ابنتها ومستقبلهما وأمالها في العيش الهنيء .

ولأنها لفتى ما هى فيه من غيرة وإشفاق وفزع ذات ليلة ، إذ جاءها النبأ بأن زوجها قد صرع . ثم يستبين الأمر قليلا قليلا ، فإذا الرجل قد ذهب ضحية لشهوة من شهواته الآثمة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس من سبيل إلى استعداء السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتها التعيستين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء ، تكره مكانهن منها ، وتنفيهن عن الأرض ، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض الريف يلتمسن حياتهن فيها يائسات شقيات ، ليس لهن سند يعتمدن عليه ، ولا ركن يأوين إليه ؛ وإنما هى امرأة وحيدة لها حظ من جمال يُطمع فيها الناس ويغرى بها أصحاب المجون ، وصبيتان بائستان لا تكادان تحسنان شيئا .

والخُطوب تنتقل بهن من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ، يلقيهن بعض اللين هنا ، ويلقيهن بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بهن الأرض فى أى حال ، حتى ينتهين إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضى فيها هذا الشيء المروع الخفيف الغريب الذى يبعث فى الجوشورا نارا ،

وصوتاً ضخماً ، وصفيراً عالياً نحيفاً ، والذي يسمونه القطار ، الذي يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقدام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصبيتين . لحأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ الغزبة فأواها يوماً ، ثم ابتغى لها ولا بنتها حجرة ضيقة حقيرة قدرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجرها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ الغزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتسى حياتك وحياة ابنتيك في بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهندس الري ، ومنهم مهندس الطرق ؛ ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تُخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، في هذه الأمتعة والعروض التي لاتأتي من الريف ولا تصنع في المدينة ، وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما ننطق ولا يعيشون كما نعيش .

عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عيشة السادة والأمراء : لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الذرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون في أطباق النحاس . وإنما يأكلون في أطباق من الخزف .

لا يسمحون لنساءهم أن يخرجن متبذلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب يتخذنها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق ، وعلى أنوفهن هذه القصببات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة ناعمة ، فالتمسى لنفسك ولا بنتيك بعض العمل في بعض هذه البيوت .

قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سبى لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعداها بالمعونة . وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمسنا تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة كما تُعرض الإماء على السادة .

ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا بيت تعمل فيه بالنهار ، وتنام فيه الليل ، ونلتقى آخر الأسبوع ، فنقضى ليلة سعيدة رضية في حجرتنا تلك القدرة الحقيمة ، قد حملت كل منا ما أتيج لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا . ونحدث عن أهلنا وقريتنا ، ثم عن سادتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيذ ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .

وكنْتُ أحسنَ الثلاثِ حظاً وأيمنهن طالعاً؛ فقد قدَّر لي أن أخدم في بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتي غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسي ، ولكنني لم ألبث أن أحبيتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كُئِلْتُ أن أصحب صبيّة من بنات المأمور كانت تقاربني في السن ، ولعلها كانت أكبر مني قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أتعلّم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقي عليها الدرس قبل الغروب على ألا ألتقي الدرس معها .

كنت لها خادماً ألحظها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن «خديجة» كانت حلوة النفس ، رضيّة الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبتسمة النحر دائماً ، وديعة النفس ، رقيقة الحاشية ؛ فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركتني في لعبها ، واختصتني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها ، ولم تبخل عليّ حتى ببعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقد لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة البيت تنكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تدعن له بعد حين ؛ وإذا أنا أختلف مع الصبيّة إلى الكتاب فأتعلّم كما تتعلّم ، وألتقي مع الصبيّة درس المعلم

فأستفيد كما تستفيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع على فيقرب ما بينها وبينى من اختلاف الزى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرأة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقاً ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنت أتكلم لغة فجأة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من « بنى وركان » . وكنت أقلد فى نفسى لغة خديجة فأحسنها وأجيدها ، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردت عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزبنى ويردنى إلى لغة الريف .

وأنفقت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألق فيهما بأساً ولم أشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الترف والنعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمى التى كانت تعمل فى بيت موظف من موظفى الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختى التى كانت تعمل فى بيت مهندس الرى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذى كان يعيش وحيداً فى دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نضرة ، ولا يعيش معه فيها إلا خادم رينى ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويترك أكثره لخادميه .

وكنت أرى أختي تشبّ مسرعة ، ويستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال ، ولكنها ظلت كما أقبلت من ريفها المتبدّي ، ريفية بدوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب . ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .

وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحقيرة القذرة ، وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجرة ، وأود لو أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو أستطعت أن ألقى أمي وأختي من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمنا كانت صارمة حازمة ملحة في الصرامة والحزم ، لا تغيّر من عاداتها شيئاً ، فكنا نلتقي آخر الأسبوع دائماً ، وكانتا تضحكان وتنعان بهذا اللقاء ، وكنت أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أرَ بشراً ولا ابتساماً ، ولم أرَ بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين كئيبين مظلّمين ، وخيل إلىّ أني أرى دموعاً تضطرب في عيني أمنا ولا تستطيع أن تنحدر . وهممت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختي عني إعراضاً ، وأشارت إلىّ أمي أن لا تسأل .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلاً في هذا الهم الممض الذي لم أكن أفهمه ولا أتبين له مصدراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأة بجملة واحدة لم أتمع بعدها شيئاً ، ولم أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صدرت هذه الجملة عن أمنا

فوقعت في قلبي موقع الصاعقة ، ولقيتها أختي بوجوم غريب ، رفعت
عينها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .
قالت أمنا : إذا كان الغد فسرتحل عن المدينة المشنومة !

لقد هممت حين سمعت هذه الحملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن
أناقش وأجادل ، ولكن أمنا قالت هذه الحملة بصوت حزين بعيد محطم ،
فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .
وذكرت ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن .
الفاجر . ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ،
وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألم بها فهدّها هدأ حين جاءها النبأ بأن
زوجها قد صُرع ، وبأنه قد صرع فيما لا يشرف به صريع .
ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يغمر الماء
الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نفثها
مع ابنتيها من الأرض .

ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن
أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أي ليلة قضيت ساهرة حائرة نائرة ،
لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأى . حتى إذا كان الصباح نهضت
أمنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟
قالت في صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيمى فسرحل
نحن . قلت باكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنى لن أستطيع أن أقيم ، وإنما

هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .
 قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور المركز ؟
 أفننُ تعلقت بك وكرهت فراقك يُخَلِّ بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن
 فلنرحل .

وما هى إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،
 وانتقلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب ، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمنا
 حيث كنا نستريح وننتظر الصباح .

٤

وينتهى إلى صوتك أيها الطائر العزيز ، وأنا أسبح فى نوم غير عميق ،
 وأرى من الأحلام صوراً قريبة مألوفة تمثل لى خديجة وهى تلعب وتدعونى
 إلى أن أشاركها فى اللعب . وتمثل لى سيدة البيت وهى تأمر وتنهى ، وتصعد
 وتهبط ، وتذهب فى تدبير بيتها وتجيء . وتمثل المأمور وقد أقبل مع
 الظهر فاضطرب لمقدمه البيت ، ثم عاد إلى هدوء يوشك أن يكون السكون ،
 ثم فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ويتوفرون على خدمته ،
 كأنهم لم يخلقوا إلا له ، ولم يوقفوا إلا عليه .

وتمثل لى أموراً كثيرة مما كنت أراه فى ذلك العهد السعيد القريب .
 ولكن صوت الطائر العزيز يبلغنى فيخرجنى من هذا النوم الحلو إلى يقظة
 مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أحس غلط المضجع وخشونة الفراش . وأين

يقع هذا الوطاء الحشن من الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطاً ،
من ذلك الفراش الوثير الموطأ الذي كان يلقي لى غير بعيد من سرير خديجة
فى تلك الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور !

لم أكد أحس خشونة هذا الوطاء ، وغلظ هذه الأرض ، حتى ذكرت
أننا ننام عند مضيفنا العمدة على سطح من سطوح الدار ، لا يسترنا سقف
ولنما تظلمنا السماء ، وتكاد تغمرننا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذى
كان يترقق فيها من ضوء القمر ، وقد تقدم به الشهر غير قليل .

نعم ! وذكرت كيف انتهينا إلى هذه القرية مجهودات مكثودات آخر
النهار ، نجلس إلى شجرات من التوت ساعة وبعض ساعة نستريح ،
لا تكاد واحدة منا تتحدث إلى صاحبها بشيء ، حتى إذا طال علينا
الصمت ، وشقت علينا الراحة ، وثقل علينا التفكير ، قالت أمنا : ما
أظن أننا نستطيع أن ننفق الليل جالسات إلى هذا الشجر ، وما أرى أننا
نستطيع أن نجد من يؤوينا أو يضيفنا فى هذه القرية التى لا نعرف من
أهلها أحداً ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة ، فيجب أن يكون بيته
مفتوحاً لكل غريب طارق بليل أو نهار . ثم نهضت متثاقلة ونهضنا معها ،
ومضت متباطئة ومضيفنا معها ، حتى انتهت إلى دار العمدة ، لم تسأل عنها
ولم تستدل عليها ، وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل . هنالك
رأينا جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة ، وتوسطهم
رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تثق النفس بأنه عمدة القرية . فلما
بلغنا مجلس القوم ولحظتنا أبصارهم ، تقدمت أمنا إلى الشيخ الوقور وقالت

في صوت هادئ متزن : غريبات قد طرقت القرية في هذه الساعة المتأخرة من النهار فأوينا ياعمدة حتى يُسفر الصبح . قال الرجل : على الرحب والسعة . ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار ، قال خذ هؤلاء النسوة إلى دار الضيافة وُمرّ بإكرام مشواهن .

ومضى الغلام ونحن نتبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة ، فإذا بناء متواضع قد انبسط أمامه فناء عظيم ، فأدخلنا إلى بعض حجراته وقيل لنا أقمن هنا حتى يأتيكن الطعام .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف وخدم ، قد اختلط بعضهم ببعض فكأنهن جميعاً أصحاب البيت ، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا ، فأسمينا وكأنا منهن .

وكان العشاء الغليظ ، وكان السمر المضطرب المختلط ، ثم كان التفرق إلى المضاجع ، فبنا من أثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو في فنائها ، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات . وقد رغبت « هنادي » في السطح وشاركتها في هذه الرغبة ومضينا معاً ننتظر النوم ، وكنت أحدث نفسي بأن هذه الخلوة إلى أختي قد تكشف لي عن بعض ما يخفى عليّ من أمر .

ولكني لم أكّد أجلس إليها أحاول أن أصل الحديث بينها وبينى حتى لقيتني بذلك الإعراض المثلوج الذي لقيتني به أمس ، ثم أشاحت بوجهها ومضت في صمتها ، وأقيمت أنا إلى جانبها حائرة لا أدري كيف أقول .

ثم استلقيت وأرسلت نفسي في فضاء هذا الليل العريض تلتمس

ما يلهيها عن هذه الهموم الغامضة المستغلة التي لم أعرف منها إلا ثقلها .
ولكن هذه النفس لم تكد تمضي في ظلمة الليل حتى أدركها موج من هذا
النوم اليسير فأخذت تسبح فيه ، ولبثت كذلك حتى أخرجها منه هذا
الطائر العزيز .

ذكرتُ هذا كله حين استيقظت ، ومرت بي خواطره مسرعة في حين
كنت أحاول أن أتبين أين أنا وكيف انتهيت إلى حيث أنا ، وفي حين
كنت أفصح عيني وأديرهما من حولي كأنما أريد أن أستكمل شخصي حين
أتبين حقيقة المكان الذي أنا فيه ، وفي حين كنت أمد ذراعي عن يمين
وشمال ، وأمد ساقى كأنما أريد أن أستمد لجسمي ما أفقده هذا النوم اليسير
من نشاط ، وكأنما كنت أمحو عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة
من ألم .

ثم أستكمل شعوري وأجد نفسي كما كنت قبل أن يغمرني النوم ،
وأحس كأن شخصاً قائماً غير بعيد مني ، فأتبين هذا الشخص فإذا هي
أختي قائمة جامدة لا تكاد تأتي حركة ، ولا تكاد تحس شيئاً ، وكأنها
لا تكاد تفكر في شيء .

إنما هو شخص مائل ذاهل قد قام في شيء من الجمود المؤلم ، ورفع
رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً ، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر
منها فجمد في مكانه لا يستطيع منه انتقالاً .

وأنت أيها الطائر العزيز تلتقي في الليل العريض المظلم ندائك البعيد
العذب ، فيصل إلى نفسي فيحييها ، ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها

الأمل ويشيع النشاط ، وأختي ماثلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينتهي إليها . ومع ذلك فما عهدتها صماء ، ولا عهدتها تحس الحزن أو تجيد الاكتئاب ، إنما أعرفها فرحة مرحة ، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن تدفع إليه ، وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه . أين هي ؟ ما بالها جامدة هامدة لا تسمع ولا تحس ؟ لعلها قد أرسلت نفسها كما أرسلت نفسي تسبح في هذا الليل العريض فأبعدت نفسها في المسعى وتركت جسمها ماثلاً بلا روح !

نهضت من مكاني في هدوء ، وسعيت إليها في أناة ، حتى إذا بلغتها مسست كتفها مساً رقيقاً ، فإذا رعشة عنيفة تجرى مسرعة في جسمها كأنها رعشة الكهرباء ، وإذا هي تجفل كالخائفة ، ثم تأمن وتسكن حين تسمع صوتي وأنا أقول لها : لا تراعى ، فأنا أحتك آمنة ، ما وقوفك الآن على هذا النحو ماثلة ذاهبة النفس ، كأنك الصنم ؟ ماذا تنتظرين من الليل ؟ وماذا تبتغين من السماء ؟ قالت وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء المتهدم وصوتها مضطرب ممزق ، يتمزق له قلبي كلما ذكرته : لا أنتظر شيئاً ولا أبتغى شيئاً . . .

ثم عادت الرعشة السريعة فهزت جسمها هزاً ، ثم انهمرت دموعها انهماراً ، ثم احتبس صوتها فإذا هي تضطرب اضطراباً عنيفاً ، وتسفح دمعاً غزيراً ، وترسل أنفاساً عنيفة متقطعة ، وأنا أجثو إلى جانبها وأضمها إلى وأقبّلها ، وأحاول أن أرد إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما وسعني ذلك ، حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب ، وانطلقت أنفاسها

بعد احتباس ، ومضت دموعها تنهمر ، وأوت إلى ذراعيَّ كأنهما الطفل
قد استسلم إلى أمه الرعوم ، واطمأن رأسها إلى كتفى ، وقضت كذلك
لحظة ما نسيت ولن أنسى عذوبتها . وما أرى إلا أنها أحست هذه العذوبة !
فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدها ، وليثت حيث كانت حتى بعد
أن سكنت دموعها ، كأنما أعجبها مكانها منى ، وكأنما وجدت شيئاً طالما
كانت تتوق إليه فلا تجده ولا تظفر به . ثم سمعتها تقول بصوت خافت
بعيد : لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أى لا منك أنت أيتها
الأخت الصغيرة ، فإنك لم تخلقى لتدلى أختك وتمنحها مثل هذا العطف
والحنان .

يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة
التي تنفى ، ويسيطر عليه هذا السكون الخفيف ظلالاً لا حد لها ، ثم يندفع
فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضىء ينطلق
في بحر من الظلمات !

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي
كانت نائرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت ، وانتهت إلى حال تشبه
النوم . وإنى لاأخذ نفسى بالهدوء وأكرهها على الاطمئنان ، وألزم جسمى
السكون في هذا الوضع الذى هو عليه لبقى هذا الرأس البائس المحزون
مستريحاً إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون .

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعها فتطوق بها
عنقى ثم تضمنى إليها ، ثم تقبلنى ، ثم تقول : إياك أن تفعل ما فعلت أو

تُخَدَعِي كما تُخَدَعْتُ أو تدفعي إلى مثل ما دُفِعْتُ إليه . إنك إن تفعل
تري نفسك في مثل ما ترينني فيه الآن من الجزع والهلع ، ومن اليأس حتى
من رحمة الله ، ومن القنوط حتى من رَوْحِ الله الذي لا يقنط منه إلا
الكافرون .

قلت : وماذا فعلت إذن ؟ وما هذا الشر الذي دُفِعْتُ إليه ؟ وما هذا
اليأس الذي تغرقين فيه ؟ وما هذا الهم الثقيل الذي صُبَّ علينا صبباً ولم
نكن ننتظره ولا نتوقع له مقدماً ؟ قالت وهي تقبلني : لست أدري أأحدثك
بذلك أم أكتمك إياه ! إني لأعتدى على سنك إن تحدثت إليك ، وإني
لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمتك الحديث .

قلت : فإن صمتك لن يغني الآن شيئاً ؛ فقد عرفت أن هما ثقيلتا
ألمّ بنا ، وأن حزننا ممضاً يمزق قلبك وقلب أمتنا ، وأن يأساً مهلكاً قد استأثر
بنفسك استئثاراً ، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم
علم هذا كله . وإني لحمقاء إن قبلت أن أنزعَ من ذلك العيش الناعم
السعيد الذي كنت أستمتع به دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزاعاً ، فحدثيني
حديثك ، فمن يدري لعل فيه لي عظة ولك عزاء .

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتنقتين قد
 أغرقتا في نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ، ولا مسّ
 الأرض الغليظة ، ولا اضطراب الدواجن من حولها وهن يزدحمن على ما ينثر
 لهن من حب ، ويختصمن فيما يُصبّ لهن في الصحف من ماء ، ويخفقن
 بأجنحتهن في الهواء مقبلات مدبرات ، واقعات طائرات ، ينادين ويتناجين
 ويتناغين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الجو حياة ونشاطاً
 وحباً .

وكأن هذا كله كان يدعوني دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذى كنت
 مغرقة فيه ، ويدنينى قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلقى الحياة دون
 أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ؛ ثم أحس
 كأن شيئاً خفيفاً رقيقاً قد مسّ كتفى مساً يسيراً فأنتبه ، ولا أكاد أفتح
 عيني وآتى بعض الحركة حتى أرى حمامة مدعورة قد ارتفعت غير مسرفة
 فى الارتفاع ، ولم تكد تطير حتى وقعت فى رشاقة وظرف غير بعيد ،
 فأستوى جالسةً وألقى نظرة إلى أختى وقد ثاب إلى حديثنا كله مرة واحدة
 فملأ قلبى إشفاقاً وحباً وحنناً . وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب ،
 واستقر قلبها المضطرب ، وهدأت نفسها الثائرة ، وذادت الراحة عن وجهها
 ذلك الغشاء المظلم الكئيب ، فبدت نصرته حلوةً مشرقة شائقة كأنها نصره

الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا في هذا الوجه الهادئ
النضر جمالٌ للعين ، وفتنة للعقل ومتعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا
أكاد أحوّل عيني عنه ، مستريحةٌ معجبةٌ مكبرة ، ولكنى أسمع من ورائي
صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : انظري . . .
انظري . . . وأطيلي النظر ! ألسنت ترينها حسناء رائعة الحسن ؟

فالتفت وإذا أمّنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك
في أن نفسها كانت تستعرض خواطر كالتى تختلف على نفسى ، وفي أن
قلبها كان يتأثر بعواطف كتلك التى كانت تملأ قلبي ، فأسألها : ما
جلوسك هنا في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أماً عيني
بمنظركما الجميل . . . ثم تنهض موليةً في شئ من الإسراع وهى تغالب
شجى يريد أن ينفجر ، وتحرص هى على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا في مكاني ذاهلةً أو كالذاهلة ، أنظر إلى أختى التى لم
تستيقظ بعد ، وإلى أمى التى تسرع مولية تريد أن تهبط أسفل الدار ،
وأفكر في هذه الفتاة اليائسة وفي هذه المرأة البائسة ، وأسأل نفسى أيهما
أحق بالعطف وأجدر بالثناء ؟ وأسأل نفسى أيهما أحق منى بالمعونة والنصر
وبالتعزية والتسلية ؟ فكلتاهما في حاجة إلى العون ، وكلتاهما في حاجة
إلى العزاء

هذه الفتاة البريئة لم تعرف بؤس النفس قبل الآن ، وهى تستقبل
الشقاء الآن مظلماً قاتماً ثقيلاً ملحاً ، لم تدعه ولم تسمع إليه ، وإنما
أكرهت عليه إكراهاً وأغريت به إغراء ، ثم دُفعت إليه دفعاً ، وهى الآن

غريق مشرفة على الموت ، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

وإنها لفي ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة ثُمَامَةً تستطيع أن تستمسك بها وتستبقى فضلاً من أمل ، وحظاً من رجاء .

وهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعدُ ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ : حرمانٌ متصل ، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة ، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع ، واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدنى من الموت ، ونظر متصل إلى هذا الماضي القريب الذي يملؤه الحزن ويفعمه الأسى ، وتضطرم فيه هذه النيران التي تُحرق قلب المرأة حين تحب ، فلا يسعفها الحب ، ولا تلقى ممن تحب إلا خيانة وخداعاً وغدرًا . وإنها لفي ذلك محزونةً لأمسها ، يائسة من غدها ، معرضة عن يومها ، وإذا الحياة تتكشف لها عن خطب جديد ثقیل ، ليس أقل نكرًا ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التي بَلَّتْها في حياتها الماضية ، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً .

لقد أنكرتها الأسرة وجفائها الأهل ونفتها القرية ، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بائستين ، وإذا هي تُنكبُ في إحداهما لأمر لا تعلمه وقضاء لم تكن تنظره . كلتاهاما بائسة ، وكلتاهاما شقية ، وكلتاهاما خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله . ولكن هذه النكبة الملمة ، والكارثة الملمحة قد باعدت بينهما : فالأم محقة على ابنتها : والفتاة نافرة من

أما ، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداهما في عين الأخرى ، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة ، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما ! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلة إحداهما إلى أن تولى مدبرة لتتأى عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث .

هل أستطيع أن أردّ ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة والابنة المحزونة ؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رياء ؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نمضي ، وماذا تريد بنا أمنا هذه التي تأمر وتنهى في لهجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالاً ؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه ، وأحرى أن أسعى إليه . فلا تبعنّ أذى إذن ولأتلطفن لها ، ولأسألنها في أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها ، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتى ، أو فيما يمكن أن نأتى من الأمر .

كل هذه المعاني تضطرب في نفسى ، وعينى لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادئ الذى يدل هدوءه على أن أختى ما زالت في تلك الأعماق البعيدة التي كنت فيها منذ حين ، لم يبلغها ضوء الشمس وحرّها ، ولم يؤذها مسّ الأرض وغلظها ، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصياح .

فأنهض متناقلة مترفقة حتى أهبط فناء الدار أتمسّ أمنا ، وما كان أيسر الوصول إليها ! فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية (٣)

تعبث في الأرض بأصابعها عبثاً يدلّ على شيء من الذهول ، كأنما كانت تناجي همّاً ثقيلاً أو تتبع خاطراً بعيداً ؛ حتى إذا بلغتها مسست رأسها بيدى وسألتها مداعبة : ما هذه اللعبة التي تلعبين ؟ وهلا دعوتني لأكون شريكك في اللعب ؛ فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة . . .

قالت وقد رفعت إلى رأساً حزيناً : أترينني ألعب يا ابنتي ؟ قلت : فما عسى أن تفعل بهذا التراب الذي تذهب فيه أصابعك وتجيء ؟ ثم أنهضتها فلم تمتنع عليّ ، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء لا يكثر فيها اضطراب الأضياف ، ونظرت إليها فإذا هي تنقاد إلىّ مستسلمة ، وإذا حزنها العميق وحنانها القوي قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هنالك أحسست من نفسى قوة ، وشعرت كأنى أنا الأم « زهرة » وكأنها هي الفتاة « آمنة » ، فاتخذت صوتها ولهجتها وألقيت عليها في غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدان ؟ وماذا تصنعين ؟ وأين تذهبن بنا ؟

قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدرى أين أذهب بكما ، وإنما أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت : ولكن إلى أين ؟ قالت : سنرى . قلت : ومتى نرى ؟ قالت لا أدرى . قلت : فقد ينبغى أن تدرى ؛ فما يحسن بثلاث من النساء أن يهيمن في الريف على وجوههن ، تلفظهن قرية وتتلقاهن قرية أخرى ، يؤويهن هذا العمدة وقد

يردّهن ذاك. قالت فماذا تشيرين؟ قلت: أمّا إذ كرهت المدينة وبعادت بيننا وبين تلك الدور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء . . .

وهنا أخذتها رعدة قوية وقالت في غضب وحدة: أى أمن وأى هدوء! إنك إذن لم تعلمي. قلت: بل علمت. قالت: وقد اجترأت البائسة على أن تلقى إليك هذا الحديث! ألم يكفها ما اقترفت من الإثم، وما انغمست فيه من الدنس حتى أرادت أن تكوني لها شريكة! قلت في رفق: دعيتها وما هي فيه الآن وعودى بنا إلى ما كنا فيه:

أمّا إذ كرهت المدينة وبعادت بيننا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل، فإني أرى أن نلتمس العمل في قرية من هذه القرى عند غنى من هؤلاء الأغنياء. قالت: لقد فكرت في هذا، ولكني أرى أن ليس إليه من سبيل! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن، ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج. قلت: فليس لنا أب ولا أخ ولا زوج! قالت: بل لنا من يحمينا، وقرينتنا التي نفينا عنها أحقّ بنا ونحن أجدر أن نعود إليها. ولئن بلغناها ليعلمنّ الذين جفونا ونفونا أن من العار أن تنفى الأسر نساءها وكرائمها! فالمرأة عورة يجب أن تستر، وحرمة يجب أن ترعى، وعرض يجب أن يصان.

قلت: فأنت تريدن إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة التهمسة التي كنت تحيينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شراً، ولا يعطفون عليك إلا كرهاً، ولا يتحدثون عنك إلا في سخرية ورحمة شر من السخرية؟! قالت: نعم! فكل هذا أهون مما لقينا، وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى

إن مضينا في هذه الحياة الهائلة التي لم نخلق لها ولم تخلق لنا. ولقد انقطعت تلك الأسباب التي كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوى القربى وسخر الأعداء ورتاء الأصدقاء. لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها العهد. ولئن بلغنا قرينتنا ليدكرنّ الناس بعض أمرنا حيناً من الدهر، ثم لا يلبثون أن ينسوه وأن ينسوننا، ولا نلبث نحن أن ننغمس في حياتنا الأولى ونعيش بين أهلنا بأئسات، ولكن آمناً...

قلت: وتريدان أن نبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا، نتقل من ريف إلى ريف، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة، وقد أعجلتنا بالرحيل عن كل أمرنا، فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا عند من كنا نعمل عندهم! قالت: سترين، فلن ينالكما جهد، ولن يمسه حياء كما أذى، ستقيم هنا حتى يأتي من يحملنا إلى قرينتنا ويبلغنا مأمننا بين الأهل والأصدقاء.

قلت: وكيف يستقيم لنا هذا؟ قالت: علمت منذ أصبحت أن اليوم في القرية سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف، فلاسعين بين الناس والبائعات، فلن أعدم بينهم رجلاً أو امرأة من أهل قرينتنا أو من أهل قرية مجاورة، فلاحملنّه رسالة إلى أهلنا، ولن يتم الأسبوع حتى يكون أخى هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغي أن نعيش.

وهمت أن أمضى معها في الحديث، ولكن حركة عنيفة قطعت علينا ما كنا فيه. فهؤلاء نسوة قد أقبلن يحملن الجفان والأسفاط ويدعون إلى الطعام.

ويسمع الأضياف دعاءهن ، ويرى الأضياف ممتدّ مهن فيستجبن للدعاء ويسرعن إلى الطعام ، ولا بدّ من أن نستجيب كما استجبن ، ومن أن نسرع كما أسرعن ، لا بدّ من أن أصدق فأنبه أختي هذه التي لا تريد أن تفيق من نومها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج من أرقها الطويل .

فأصعد ، ولكني لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمة ساهمة حيث رأيتها من الليل حين أيقظني طائر الغريز .

٦

وأقبل من في الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات يتراحمن بالمناكب ، ويتدافعن بالأيدي ، ويتراجرن باللفظ واللفظ ، ويرتفع في أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن يوثق الله حزامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الداء ، وينصره على الأعداء .

ونحن نسعى وجيلات خجالات ، يدفعنا الجوع والأدب ، وبمسكنا الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قلّ الكلام ، وقرّت الأجسام ، واضطربت الأيدي وعملت الأفواه .

وأنا أرى هذا كله فيؤذني منظره ويقع من نفسي موقعاً أليماً .
ما أبعد ما بين هذه الأيدي الغليظة الحشنة قد تقلص جلدتها وتقبّص ،

وهي تغوص بما فيها من الخبز غوصاً في القصاص فتصيب منها ما تستطيع ،
وما بين تلك الأيدي الرقيقة الرفيعة الناعمة المترفة التي لم تكن تمتد إلى
الأطباق إلا هيئته ، والتي لم تكن تمسّ ما في الأطباق إلا بهذه الأدوات
التي يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التي يلقى فيها الطعام إلقاءً على
عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدري الحلق ! وكأن الطبيعة لم تودع
هذه الأفواه حسّاً تجد به لذة ما تأكل وما تشرب ، وإنما اتخذتها طريقاً
إلى الحلق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التي
لم تكن تفتتح إلا بمقدار ، والتي لا تلهم ولا تلتقم ولا تنتهي بما فيها إلى
حلق تزدري ، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسه من الألوان ، ثم تنتهي
به على مهل إلى حلق تسيغه في أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون
لا بدّ فيه من الرويّة واصطناع المهل والأناة !

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التي حشرنا فيها حشراً في فناء هذه الدار ،
وما بين تلك الأسرة التي كنت أعمل عندها وأجد في خدمتها حين تجلس
إلى المائدة لذة ومتاعاً يعدّ لان بل يُربّيان على ما كنت أجد من اللذة
والمتاع حين أجلس إلى طعّام مع رفاقي من الخدم بعد أن يتفرق سادتنا
عن مائدتهم !

أين أجد القدرة على أن أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرك في مع
هذه الأفواه ! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقةً بهن ،
وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي

وأصيب منه قليلا بين حين وحين . وأمننا تصيب من الطعام في قصد واعتدال ، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء . وأختي واجمة ساهمة كأنها في أرض غير هذه الأرض ، وفي حياة غير هذه الحياة . ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات ، فنهمن نحن أن نتتحي ناحية ، ولكننا لا نكاد نبليغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث يجلسن حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا في الحديث . تقول إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها وأواخر الشباب وأوائل الشيخوخة ، ويحفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميل إلى الفكاهة ظاهر : ما رأيت كالיום نسوة يستغنين بالأعين والآذان عن الأيدي والأفواه وعن الألسنة والحلوق والأجواف .

ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس ، وما نسمعنا لكن صوتاً ولا عرفنا من أمركن شيئاً . وها أنتن أولاء تستدرن معنا حول الطعام فلا تكدن تمددن إليه يداً ولا تكدن تصبن منه حظاً ، كأنما يغذيكن النظر إلى الطاعمات وهن يلتقمن ويلتهمن ويزدردن ، وكأنما يُرضى حاجتكن إلى الحديث الاستماع للمتحدثات ! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من في الدار مكاناً وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتشر معها في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المجون . حتى إذا فرغت من ضحكها وجرّت الهواء إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير قالت : أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة ورضاً ؟ إنكن إذن لبائسات .

قالت هذا ثم التفتت إلى أمنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن لم تنطق بحرف ولم تعرف كيف تلتق هذا السيل المنهمر من اللفظ ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً ، وظهر على وجهها اضطراب شديد ، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة الجريئة اللعوب فغضتّهما ، وأطرقت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير يلحّ عليه الكبار في السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب .

هنالك التفتت هذه المرأة إلى وقالّت : هذه أمك صامته لا تقول ، وهذه أختك واجمة لا أمل في أن تفهم ولا في أن تجيب ، فتكلمى أنت فأنى أرى في عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القمحة ، وما أظن أن في عينيك ملحاً . . . ! قولى من أنتن ومن أين تُقبلن؟ وما خطبكن وما إغراضكن عن الطعام؟ وما إثاركن للصمت؟ قلت ولم أستطع أن أدفع الضحك عن نفسى أمام هذا الهجوم المفاجيء الغريب ، وأمام إغراق هاتين المرأتين الآخرين في الضحك ، وإغراق أمنا في الصمت وإغراق أختى في الوجوم : وأنت من تكونين ومن أين تُقبلين؟ وما أنت وسؤالك إيانا وإلحاحك علينا؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتيّها : ألم أقل لكما إنها « قارحة » ليس في عينها ملح ، وإنها هى التى ستسمع لى وترد على ! ثم التفتت إلى وقالّت : تحقيق . . . أسمعين؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك له ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أنى تعودت التحقيق مع النساء ومع الرجال أحياناً والإلحاح فى السؤال على أولئك وهؤلاء . . . ثم أرسلت

ضحكتها ورجعت شبيقتها، وسألتنى ملحمة: من نكون ومن أين نقبل ؟ ! وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر ، جادةً حيناً وهازلة في أكثر الأحيان ، وصاحبها تعيناً على بعض ما تريد من ذلك ، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى ، وعرفت من أمرهن ما رغبتني في ألا تنقطع الصلة بيني وبينهن ما أقمنا في هذه الدار ، وكن جميعاً من أهل المدينة التي أقبلنا منها ، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبغلهما نحن بساعات ، أقبلن راكبات وأقبلنا نحن سعيّاً على أقدامنا . فأما هذه المحققة التي كانت تسأل وتلحّ في السؤال ، وتمازح وتغلو في المزاح ، فكانت امرأة عظيمة الخطر ، عرفت من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل ، وتبينت أن اسمها كان شائعاً ذائعاً على جميع الألسنة وفي جميع الأنحاء لا في المدينة وحدها بل في كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضياع .

كان اسمها « زنوبة » وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث ، كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس . كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة ، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يفدون على المدينة في فصل الشتاء ليشغلوا في معمل السكر . وكانت تفيد من فصل الشتاء لهما كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً . حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدنومن الكهولة قليلاً قليلاً آثرت ظاهراً من القصد ، وتكلفت شيئاً من الاعتدال ، وأسديلت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يبتغون .

ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها في المدينة . وكانت وسيلتها إلى هذا الاتصال معرفتها للشبان ، ومخالطتها للرجال ، وانسلاخها إلى بعض الدور واستماعها لكثير مما يُلقي من الحديث ، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث ويلى من الخطوب . فكانت عيناً من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جداً مما لا تنفذ إليه عيون الرجال ، وكانت تفيد من ذلك مالا ، وتكسب من ذلك هيبه ، فكان الناس يخافونها ، ويتلطفون لها . وكانت الشرطة تستعين بها استعانة خاصة خصبة حين يصرع صريع بالليل ، ويبحث المأمور وأعوانه عن القاتل فلا يظفرون به ، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من الأحاديث في بعض أندية الشباب وفي داخل كثير من البيوت ، وحين يعتدى اللصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم على الشرطة . وكانت أنفع ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على إعانتها حين يهاجم الطاعون أو الكوليرا أو أى وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى ، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلهم في تلك الخيام التي كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت .

هنالك كنت ترى زنوبة حركة متصلة كأنها النحلة ، لا تستقر ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان . هى في كل شارع وفي كل حارة وفي كل زقاق وفي كل بيت ، ونقالة الصحة من ورائها تجوب الشوارع والأزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً . وفي تلك الأوقات كان الناس ييغضون زنوبة أشد البغض ، ولكنهم كانوا يضطرون إلى

لقائها واحتمالها ، يسمون لها ويلعنون الوباء لأنه لم يمسه ولم يحملها على هذه النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم التي تضطر إليها الناس .

وقد جمعت زنوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من المال . فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميته . وقد سلكت إلى ذلك طريقين : فهي من ناحية مرابية ، تقرض الجنيه بثلاثة أمثاله مُنَجِّمة على العام ، وتشتري من الأسواق في المدينة والقرى ما تستطيع شراءه من الحب رخيصاً ثم تبيعه بين الفقراء والبائسين ، تشتط عليهم في الربح لأنها تصبر عليهم في اقتضاء الثمن . وقد زهد الشباب فيها وقلَّ نشاطها إلى اللهو الجريء ، فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلاً من الخفراء غريباً عن المدينة وفد إليها منذ حين ، قوى البنية طويلاً ضخماً ، مخيف الصوت ، ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيء الخلق ، مدخول الضمير ، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجاً أو خليلاً ، وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتنكرها الأخلاق والدين ، ويمقتها أهل المدينة أشد المقت . وهي حين رأيها لأول مرة كانت قادمة على القرية التي كنا فيها لتشتري ما تستطيع شراءه من القمح والذرة والفول ، ثم لتعود به إلى حيث تمتص به أموال الفقراء والمعدمين .

ولم تكن « خضرة » أقلَّ خطراً من زنوبة ولا أهون شأنًا ، وإنما كانت مثلها معروفة بعيدة الصيت ، يتحدث الناس بها وبأنبائها حين تخرج من المدينة وحين تعود إليها ، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً ، ويسعد بها الرجال والنساء جميعاً أيضاً .

كانت دلالة ، تفد إلى العاصمة من حين إلى حين ، فتجلب منها مقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة اليسيرة الرخيصة التي هي مع ذلك فتنة للنساء وشقاء ومتعة للرجال . لم يكن في المدينة بيت مترف إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سراً أيضاً . ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها ، وقد تفضى إليها بالأحاديث ، وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكان نشاط خضرة يشتد ويعظم إذا كان الشتاء وجرت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة ؛ فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض ، تصطنع هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة ، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحقائق والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصعبه في القطار .

كانت إذا عادت إلى المدينة تسامع بها الناس ، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها لهن . وكانت أسعد السيدات هذه التي تظفر بزيارتها الأولى تسبق إلى خير ما عندها من ضروب الأقمشة على اختلافها ، ومن صنوف الأعطار ، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهينة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها ، ومن أنواع الخرز بنوع خاص ، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حلياً لأذرعهن يعالجن لبسها علاجاً شديداً دقيقاً خطراً وقلما يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحاً بليغاً . وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيداً متصلاً في البيوت للنساء

والأطفال جميعاً ، أولئك يسعدن بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع ، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند ، ولا سيما هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتي لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة ؛ فقد كانت رقيقة لينة لا تشقى بمضغها الأضراس ، وتجد فيها الأفواه والحلق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التي تجدها فيما يصنع في المدينة من الحلوى السمسمية أو الحمصية الغليظة اليابسة التي يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهه .

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملونة التي كانت تجلبها لهن والتي كن يَتَمَسَّسْنَ في إدارتها حول رعوسهن وفي اتخاذها سجوناً فتاة خلافة لشعورهن الثقال . ولا تذكر هذه الضفائر أو هذه الخيوط التي تنظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من المعدن والتي توصل بالضفائر ، وبضفائر الفتيات النواهد خاصة ، فيكون لها على ظهورهن منظر حسن ، ويكون لها رنين حلو إذا مشين أو أتين بعض الحركات . وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باثمين بل مغتربين أول الأمر ، يجدون في ذلك رضاء بريئاً وتلهية نقية للنساء والفتيات ، فإذا مرت أيام وكثر تردد خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيما تعرض عليهن من المتاع ، وظهرت رغبة النساء ملححة على وجوههن وفي حديثهن وفي تنكرهن للرجال حين يظهرون تمنعاً أو إباء . ضاقوا بخضرة أشد الضيق ، وودوا لو تذهب مرة إلى القاهرة فلا تعود .

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن في الطبقة والثراء ، تنقلت بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف . وهي في ذلك اليوم الذي لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيبتان أو ثلاث فيها من هذه الدوائر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملونة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة ، وما لعله يورق ليل كثير من الريفات ويملاً أحلام كثير من عذارى الفلاحين .

ومن الخطأ أن يُظن أن « نفيسة » كانت أقل شهرة من صاحبتها أو أيسر منهن شأنًا عند أهل المدينة وعند أهل الريف . كانت متقدمة في السن قد بعد عهدها بالشباب ، وتركت الشيخوخة في وجهها وصوتها وجسمها كله آثاراً قبيحة منفرة للنفوس ، ولكنها على ذلك كانت دخيلةً في كل بيت ، صديقة لكل امرأة . كانت عرافة تقصّ ما كان ، وتصف ما هو كائن ، وتنبئ بما سيكون . وكانت لها صلة قوية بالجن والشياطين ، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم في كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حدّ له . هذه ضيقة زوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضررًا فهي تستعين بنفيسة لتسلط عليه عفريتًا من الجن يصدّه عن خليلته أو عن زوجته . وهذه تحسّ من زوجها نشورًا أو إعراضًا ، فهي تستعين بنفيسة لتتخذ لها من الطَّلسمات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة دارها . ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً في نفوس الرجال والشبان منها في نفوس النساء والفتيات ؛ فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن

الغيب ، وقد كانت تحسن استعطاف النساء إذا نفرن أو أعرضن ، وقد كانت تحسن تسخير الجن في قضاء ما يلتوى من الحاجات . وكانت نفيسة مشغولة دائماً ، لا تكاد تستريح من السعى بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين . ولكن شهرتها بذلك قد جاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف فأخذوا يسعون إليها ، ثم أخذت هي تسعى إليهم وتنتقل بينهم بسحرها وطلسماتها وودعها . وهي حين رأيته كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب .

ولم يكد يتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا ، وأحرصهن على أن تمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائها من الجن والعفاريت ، لم تجد في ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً . فهذه الفتاة الذاهلة التي لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليقة أن تلفت العجوز الساحرة إلى نفسها ، وقد فعلت . . . فما أكثر ما تلح هذه العجوز في السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة ! والفتاة لا تجيب ، وأما أشد منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه . والسؤال يتجه إلى دونهما ، فأضطر إلى أن أزعم أن بأختي علة قد أعيت الطبيب ، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء ، وما أيسر ما تفض السرة وينثر منها الودع على الأرض ! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً ، وضماً ونثراً ، تلائم بينه وتخالف ، وتتخذ منه أشكالا تقرأ فيها من أنباء الماضي والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إني لأراها الآن وقد مضت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تنظر
 في الودع وتطيل النظر ، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التي تدل
 على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإني لأسمع صوتها المحطّم
 الذي كان هامساً دائماً مهما يرتفع . وإني لأحفظُ جملها منذ ذلك اليوم
 ما نسيتهما ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ نظرتُ إلى
 ودعها ، ثم أطالت النظر فيه ، ثم رفعت عينها إلى أختي فأطالت النظر
 في وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عينها فيه ، ثم رفعت رأسها وهي
 تقول للفتاة : إنَّ أمرك يا ابنتي لعجيب ، إني أراك بين اثنين : أحدهما
 يحبك وسيؤذيك ، والآخر آذاك وسيحبك ، وإني لأحاول أن أفهم
 فلا أستطيع . والرأى لك يا ابنتي أن تستشيري سادتنا من الجن أو سادتنا
 من الأولياء . . . وما أرى أن هذا عليك عسير ؛ ففي هذه القرية القريبة
 منا والتي تستطيعين أن تبلغيهما في ساعة وبعض ساعة ما تحبين : فيها
 مقام سيدنا فلان ، وإنه ليأتى بالأعاجيب ، وفيها دار فلانة وإن قريبها
 من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضاً . ولم تكذ نفسيّة تنطق بالجملة الأولى
 من حديثها حتى وثبت أمنا كأنما دفعت إلى الوثوب دفعاً آلياً ، وانطلقت
 مسرعة فلم نرها إلا بعد وقت طويل .

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنشر في الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث . . . ما خطبك ؟ وما أنباءك ؟ وما الذى يغريك بى ويسأطك على ؟ ! لا أكاد أمضى فى النوم حتى تسرع إلى توقظنى ، كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تخلنى بينى وبين النوم ، وكأنما كلّفت نفسك أو كلّمتك غيرك أن توقظنى إذا تقدم الليل لتظهرنى من الأمر على ما كان خليقاً أن يفوتنى إن استسلمت للذة الأحلام . . . ! إبعث نداءك سريعاً بعيداً أولاً تبعثه فقد أيقظتنى ، وما أرى أنى سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذى شهدته أمس حين كانت أختى ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء .

إنى لأشعر بأنى سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيها أمس ، وإنى لأشهى للنهوض إليها ، ولكن نداءك لا ينقطع ، إن لك لشأناً . . . !

ماذا ! إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالصاً لك هذه الليلة كما تعود أن يخلص من قبل . ماذا أيقظ الطير ؟ إبنى لأسمع خفق أجنحتها ، وأحس كأنها منتشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مضطربة فى هذا الجو الخفيف . ماذا أيقظ الكلاب ؟ إبنى لأسمع نباحها قوياً متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعها .

ماذا أيقظ الناس ؟ إبنى لأحس حركة خارج الدار ، وإبنى لأسمعهم

يتداعون ويتنادون ، وإني لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها .
 ماذا أيقظ من في الدار ؟ إن الحركة من حولي لتكثر وتختلط
 وتشتد ، وإني لأشعر بالفزع قد انتشر في الجو كما ينتشر الدخان
 الكثيف .

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز ما زال متصلاً سريعاً بعيداً ، كأنك لم
 توكل بإيقاظي وحدي ، وإنما وكلت بإيقاظ الناس جميعاً والأحياء جميعاً .
 انظر ! إن كل شيء قد استيقظ من حولك ، ولكن نداؤك ما زال
 متصلاً سريعاً بعيداً . أتريد أن تتحدث إلى النجوم ؟ ولكني أنهض لكل
 ما أحس حولي من حركة وضجيج وعجيج واضطراب ، فأسأل أختي
 هذه المائلة الداهلة ماذا حدث ؟ ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً ،
 فيأخذني حقن وغيظ ، وأهزأها هزأً عنيفاً وأنا أصبح بها : ماذا ! ألا
 تسمعين ؟ ألا ترين ؟ هنالك تتنبه وتجيبي في شيء من الوجل : ماذا
 تريدن ؟ فأتركها مستيثة منها وأهبط فناء الدار حيث اجتمع النساء
 يتسألن ويتجاوبن ، ويشتد بينهن لغط مختلط لا يكاد ينقضي .

هناك أجد أمنا بين هؤلاء النساء ، شاهدة كالعائبة ، ومستيقظة
 كالنائمة ، تسمع ولا تقول . فإذا سألتها عما حدث أجابتنى في صوت
 هادئ حزين : زعموا أن رجلاً قد قُتِلَ قريباً من القرية يقال له عبد الجليل ،
 وقد جاء الصريخ إلى العمدة فأيقظ رجاله وهو يستحجم لالتماس
 القاتل .

وقضينا بقية الليل ساهرات نسمع ما يصل إلينا من الأخبار التي إن

ابتدأت فلا نهاية لها ، وهى أخبار القتل فى المدن والقرى وفى الحقول وعلى الطريق العامة . وقد زعم من حدثنا من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذى صُرع الليلة قد كان أمراً محتوماً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء فى القرية ، وكان قوياً شديداً البأس عظيم السطوة ، وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين ، وكانت له فى القوم آثار لم تُنسَ ، فهم يطلبونه بها . وقد اضطربت القرية منذ ليال لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت ، فجعل يطرق بابه طرْقاً عنيفاً ، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفيق أيها المجنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار . فذعر أهل البيت لهذا الطرْق وهذا النداء ، وأسرع الرجل إلى الباب ، فما راعه إلا شيخ الخفراء يبرق ويرعد ويلح فى النذير ، ثم دخل الدار وطاف بحجراتها وغرفاتها يلتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار ، وهو يقسم ويغلظ فى القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرض للموت ، وأنه إنما روع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طالبيه ، ومنذ تلك الليلة استيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء ، وليسوا بمقلعين عنه حتى يقتلوه . وها هم أولاء قد وفوا بالنذر وقتلوا عبد الجليل . وها هو ذا العمدة يفرق رجاله فى كل صوب ، يأمرهم باقتحام هذه الدار ، وبالبحث عن فلان والقبض على فلان والتوثق

من فلان . وهذه القرية هائجة مائجة تسأل وتبحث ، وتستقصي وترتاع .

وهذه جثة عبد الحليل طريحة غير بعيد من الجسر ، قد فارقها الحياة بعد احتضار طويل ثقيل ، وقد قام عندها الرجال يحفظونها في مكانها حتى تأتي الشرطة من المدينة ، وحتى يأتي المحققون . وقد أقبلوا جميعاً بعد أن ارتفع الضحى ، فأقاموا حول الجثة حيناً يسألون ويشرح الطيب . ثم أقبلوا نحو القرية ونساء الدار مشرفات ينظرون إليهم ، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشربوا القهوة ، ويمضوا في التحقيق ، ويصيبوا شيئاً من طعام .

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات . ولكن ماذا ؟ إنى لأراجع مسرعة وقد اضطرب قلبي اضطراباً لا يكاد يستقر معه في صدري ، وقد تكلفت جهداً عنيفاً لأحبس صيحة كادت تنبعث من فمي ، وهذه أمى تجرتني إليها لا تقول شيئاً ولكنها تهبط معي فناء الدار ، ثم تهدأني بعض الشيء ، ثم تقول لى كالهامة : إياك أن تظهرى أو أن تدعى هذا المكان فإنه والله إن رآك لم ينصرف حتى يستصحبك . ذلك أنى كنت قد رأيت المأمور .

لماذا أكذب نفسي ! لقد هممت غير مرة أن أسعى إليه وأن أسأله عن خديجة ، وأن ألح عليه فى أن يستصحبني ليردني إلى تلك الحياة الناعمة وليحميني من هذا الظلام الذى كنت أدفع إليه على غير إرادة ولا رأى .

نعم ! لقد هممت بهذا كله ، ولقد كدت أفعل ، ولكنى رأيت
أمى وما كانت تستصحب من بؤس قديم ، ورأيت أختى وما كانت
تستقبل من بؤس حديث ، فأثرت شقاء هاتين الشقيتين على ما كنت
أحب لنفسى من الخير ، وبقيت معهما أنتظر ما تضمّر لهما الأيام .

٨

آمنة . . . آمنة . . . أقبلى . هذا صوت أمنا ينتهى إلى ، وقد انتحيت
ناحية مع زنوبة وخضرة على السطح ، نتحدث ألوأنا من الحديث ، وأختى
جالسة غير بعيد قد شُغلت عنا بما يملأ نفسها من همّ وحزن ، فإذا
سمعت الصوت أسرع إلى أمى فى الناحية الأخرى من سطح الدار ، فإذا
هى قائمة قد ظهر عليها النشاط وانجلت عن وجهها سحابة الحزن التى
كانت تُغَشِّيهِ ، وهى تبتسم وتشير بيديها وتقول لى : انظرى انظرى ! هذه
والله إبل « بنى وركان » . فأنظر فأرى أعرابياً كأنه الشيطان وقد أناخ
قريباً من الدار جمالين عظيمين وأخذ يحط عن أحدهما بعض الأثقال .
أمى مستبشرة متهللة تشير وتلجّ فى الإشارة وتقول : ألم تعرفى خالك
ناصرًا ؟ ألم تعرفى هذين الجميلين ؟ عرفت خالى ، فما أكثر ما كنت ألقاه
أيام الطفولة والصبا ، وما أكثر ما كنت أخافه حين ألقاه ، وأكره
منه هذا العنف الذى يتدرّج كل من اتصل به ، وهذه اللهجة القاسية التى
يمتاز بها حديثه ، وهذا الصوت القاطع الذى يلقى إليك الكلمات فى

حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجidal !
 نعم عرفت خالى ناصراً ، وذكرت أنى كثيراً ما كنت أُنقيه إذا لقيته ،
 ولا أستجيب لدعائه إذا دعانى إلا كارهة ، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر
 لى من مودة وعطف وحنان ، ولا أقبل إلا راغمة ما كان يقدم لى أحياناً
 من البلح والعجوة ، يريد أن يتملقنى ويترضانى .

نعم ! عرفت خالى ناصراً ، وذكرت أنى كنت سيئة الظن به ،
 شديدة النفور منه ، وأنى كنت ألوم نفسى أحياناً على سوء ظنى وشدة
 نفورى . حتى إذا صُرع أبونا ورأيت كيف استقبل أُمى بأبناء هذا المصرع
 وكيف قسا عليها وعلينا ، ولم يفكر فى أنها أيسم وفى أننا يتيمتان ،
 وإنما فكر فى الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجرّ عليها هذا الخطب
 من عار

ثم لم تكد تمضى أيام حتى أقبل ذات صباح ، مظلم الوجه قاسى
 اللحظ جافى اللفظ ، فأقنع أمنا بوجوب الرحيل ، وأنبأها بأنه سيعدّ لهذا
 الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمناً فى قرية من
 قرى الريف .

ثم جاء هذا اليوم الذى أخرجنا فيه من دارنا ، وأبعدنا فيه عن
 قريتنا ونفانا فيه من أرضنا ، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة
 وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاء ، وانصرف عنا راجعاً إلى حيث ينعم
 مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء .

منذ ذلك اليوم لم أشكّ فى أن رأى فيه لم يكن خاطئاً ، وأن حكى

عليه لم يكن قاسياً ، وأن نفورى منه لم يكن إلا صورة صادقة لما ينبغي لهذا الرجل الغليظ في قلب فتاة ضعيفة بريئة وادعة ، لم تجن على أحد شراً ، ولا تفهم أن يجنى عليها أحد شراً . وكانت أمى وأختى تتبعانه ببصريهما محزونتين لفراقه أشد الحزن ، وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذى نفينا عنه . أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذى كان يوجه شطره ، ولكنى لم أكن أراه لأنى لم أكن أحفل به .

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد المنفسح إلى هذه القرية المطمئنة التى أخرجت منها لإخراجاً ، لعلى أرى دارنا ، ولعلى أرى هذا الفناء المنبسط أمامها ، والذى كنت ألعب فيه مع أترابى من الغلمان والصبيان ، ولكنى لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار ، وإنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة فى السماء بعض الشيء ، وأقدر أن قرينتنا تقوم هناك على هضبة من هذه الهضاب . وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذى ينبسط من دون هذه الهضاب ، والذى كنت لا أمضى فيه قليلاً حين نفينا من قرينتنا إلا أحسست كأنى أترك فيه قطعاً من نفسى أنثرها فى أرضه الخضراء نثرًا .

نعم ! عرفت خالى ناصراً وهو قائم بإزاء جملبه بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان ، وما تصورته قط إلا شيطاناً . ومنذ هذه اللحظة التى رأيته فيها يضع أثقاله وتمعته فيها يسأل عن صاحب الدار ، لم أزد إلا يقيناً بأنه شيطان . سأل خالنا عن صاحب الدار . وكان رجال العمدة

قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلاً أعرابياً عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء ، قد أقبل يسأل عنه ، فخفف العمدة لاستقبال ضيفه ، وما زلت أراه يستقبل الأعرابي باسماءً وادعاءً ، والأعرابي يحنيه في غلظة وجفوة ، ثم يقول له متعالياً : إن النبيّ قبل الهدية يا عمدة . يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التي حطها عن جمليه إشارة المكبر لها الدال بها ، والعمدة يدعو بعض رجاله ويشير إليهم أن يحملوا هذه الأثقال وأريحوا هذين الجميلين . ثم يدعو ضيفه الأعرابي رفيقاً به شاكراً له ، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار .

وقد اطمأنت الدار بالأعرابي ، ولقي من كرم مضيفه وبشاشته ما أرضاه ، فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعودوا أن يخوضوا فيه من الحديث ، قال فجأة : إن لنا عندك ودائع يا عمدة ، فاردّد علينا ودائعنا ! فالله يأمر أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها . قال العمدة : ودائعك محفوظة لك ، مردودة عليك يا شيخ العرب ، فما ذاك ؟ قال الأعرابي : امرأة أقبلت منذ أيام ومعها فتاتان ، سألتك الضيافة فأوتيتها وأوتيت ابنتيها وأحسنتم لقاءهن وأكرمت مثواهن ، ونحن أعرف الناس بحق الكرام . قال العمدة : وما أنت وهذه المرأة وابنتاها ؟ قال الأعرابي : هي أختي . قال العمدة : فقد نزلن على الرحب والسعة ، وما فعلت إلا ما كان يجب عليّ ، وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء ! ولكن ودائعك يا شيخ العرب لن تردّ عليك حتى تقيم بيننا حيناً فتسمع منا ونسمع منك ؛

فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضيـنا ، وقد بعدَ عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه ، وكانوا قد خيموا في ظاهر القرية أشهراً ، ثم ارتحلوا لا عن قلى ولكن عن رغبة في الرحيل . واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين هذا الأعرابي حتى انقضت ساعات السمر .

٩

أما أنا فلم أطعم النومَ في هذا الليل الطويل الثقيل ؛ لأن أختي لم تطعم فيه النوم ، ولم يحتج طائرى العزيز إلى أن يوقظنى بندائه السريع البعيد ، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أنى ساهرة مؤرقة فلم يحتج إلى تنبيهى ، فانطلق فى الجو الفسيح ينبه غيرى من الذين لم تـؤرقهم المـموم والأحزان .

عدتُ إلى أختي كثيفة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أخفى ما أجـد من الكآبة وضيق الصدر ، فأنبأتها بمقدّم خالنا وبأننا مرتحلات فى أكبر الظن إذا أسفر الصبح ، وجعلت أزيّـن لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبتة بيننا وبين البحر ، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذى يفصل بيننا وبين بلادنا فى الغرب ، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه ، ثم نعبّر هذا البحر ونمشى على هذا السهل الجميل النضر الذى تلتقى فيه أرض الصحراء المجذبة وأرض الريف الخضبة ؛ ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى فى

الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التي تقوم من ورائها قرينتنا وادعةً هادئة كأنها تحتمى بها من كل طارق يأتيها من الشرق . أنا أزيّن لها هذا كله بلساني ، وأتكلف لها مظهر المرتاحة له المغتبطة به المقبلة عليه في سرور ولذة ورضا وشوق ، والله يعلم إن كنتُ لحزونة أشد الحزن مبيتة أشد الابتاس ، تنازعني نفسي إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي ترامت أطرافها ، وامتدت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها من حضارة وترف وثراء . والله يعلم أني لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذي سأدفع إليه إذا أسفر الصبح إلا برغمي وعلى أشد الكره مني . ما كنت أحفل بالحقول المنبتة ، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء ، ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر ، ولا أجد رغبة في التصعيد الهين إلى هذه الهضبة المهيبة ، ولا أجد حيناً إلى هذه القرية الوداعة التي درجت فيها . إن هناك لحقولاً أخرى منبتة نحو الشرق تنحدر إلى المدينة في دعة وفنور وتكسر جميل ، وإن هناك لخطاً عريضاً من الماء أشد روعة وجمالاً وإثارة للسحر في القلوب من هذا الخط الضئيل النحيل يسمونه بحراً وما هو بالبحر ، وإنما هي قناة لا يصح أن تذكر مع النيل . وإن هناك لدوراً شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحدائق البديعة ، وتلد الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهم بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار . وإن هناك لفتاةً جميلة وسيمة رقيقة هي التي أحنّ إلى لقاءها وأتحرّق على تجديد العهد بها . وماذا أصنع في تلك القرية ، وأيّ حياة تهيأ لي فيها ! كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها

رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذى جعلت أخرج منه قليلاً قليلاً حتى
امتزت من أمى وأختى وأخذت أشعر بأنى أحسن منهما فهماً للحياة ،
وأصدق منهما حكماً على الأشياء ، وأشد منهما صبراً على الخطوب ،
وأمهر منهما فى التخلص من الشدائد والكوارث . ألسنت أدنى منهما إلى
الطفولة ، وأجدر منهما أن أكون غرّة غافلة ؟ ومع ذلك فإنى أنظر إليهما
كما تنظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى
العطف والعون !

كذلك كنت متناقضة أشد التناقض ، مختلفة أشد الاختلاف ،
أزيتن لأختى ما أبغضه أشد البغض ، وأمنيتى نفسى بما ليس إليه من
سبيل . وكثيراً ما خطر لى خاطر فلم أقف عنده لأنه كان يظهر لى
سخيلاً مستحيلاً ؛ كثيراً ما خطر لى أن أتغفل من حولى إذا تقدّم
الليل ، وأن أنسلّ من الدار وأن أهمى على وجهى نحو الشرق منسابة بين
المزارع والحقول والقرى كما تنساب الحية الدقيقة ، حتى أبلغ المدينة مع
الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أقف عند هذا الخاطر الذى كان يمر بنفسى من حين إلى حين
مرّاً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف ؛ لأن الاستجابة له لم
تكن ميسورة . وكيف الانسلاخ من الدار والأحراس عليها قيام ! وكيف
الانسياب فى الريف ؟ ! وماذا تصنع فتاة وحيدة فى ضوء النهار فضلاً
عن ظلمة الليل ! وكيف لى بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل
الأحداث والخطوب ؟

أُقيمي أُقيمي يا أُمّة ! وانسى نفسك ولذتك وراحتك ، وانظري إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك ، إن ذهوها ليمزق القلب ، وإن شحوب وجهها ليذيب النفس ، وإن هذه الدموع التي أخذت تنحدر من عينيها في سكون وصمت خليقة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها ، وعن كل عناية إلا بها . الحُى الحُى يا أُمّة في تزيين الرحيل ، وفي التحدث بما سجد في القرية من أمن ، وبما سنستقبل فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية ، لا نخدم أحداً وقد يخدمنا الناس .

ولكن أختى لا تسمع لى أو هى تسمع ولا تفهم عنى . هى مثلى لا تحب الرحيل ولا تحن إلى الغرب ، وإنما تحنّ إلى هذا الشرق الذى تركت قلبها فيه : هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى تحيط به هذه الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذى يسمونه الباشمهندس .

فى هذا البيت تركت أختى قابها . وهى من أجل ذلك ذاهلة ذهولاً متصلاً ، وهى من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو تردّ علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال . كنت أحسبها محزونة لما تورّطت فيه من خطيئة ، وما أشك فى أنها أحست هذا الحزن ، وما أشك فى أن الندم قد عذبها تعذيباً ، لكننى بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبينت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسى تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التي تنظر وراءها فترى حباً مضيعاً ، وتنظر أمامها فترى خوفاً مروعاً ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها إلى حيث الحب وما يمكن

أن يستتبع من نعيم أو بؤس ومن سعادة أو شقاء . ولكنها تدفع إلى أمام ، تدفع إلى حيث الخوف والروع ، وإلى حيث اليأس والقنوط ، تدفع فتدفع ، لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئاً ينم عن مقاومة أو ممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتمحو حظها من الشخصية والإرادة محواً ، هذه القوة التي يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمان !

أنا أكذب على أختي فأزيّن لها ما أكره ، وهي لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وإنما أسلمت نفسها للقضاء واستيقنت أن خير ما في حياتها قد انقضى منذ أمرت أمنا بترك المدينة ، فلم تخالف من أمرها وإنما استجبنا طائعتين . ولكن مم كانت تخاف ؟ وما هذا الروع الذي كانت آياته تبدو على وجهها بين حين وحين ، والذي كان يبعث في جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توشك أن تدفعها إلى الوثوب ؟ إن في هذا الغرب الذي ندفع إليه خموداً وخمولاً ويأساً وقنوطاً ، وكل هذا يسوء وكل هذا يملأ القلب حزناً وأسى ! ولكنه لا يروع ، ولا يبعث في النفوس هذا الجزع ، ولا يثير في الأجسام هذه الرعدة العنيفة الخفيفة . كلا ! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروع يملأ نفسها ، فقد كانت تعلم ما لا أعلم ، وكانت تقدّر ما لا أقدر ، وكانت تمر أمامها صور حزينة شاحبة ، ممتعة مذعورة باعثة للذعر ، صور فتيات ثلاث لم أسمع بهن قبل هذه الليلة ، ولكنهن كن حديث المدينة منذ عام وبعض عام ، خرجن من المدينة كما خرجنا نحن ،

أو أخرجنا منها كما أخرجنا نحن ، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن ، وإنما عادت إليها أحاديثهن ، كلها خوف وروع ، وكلها يأس وقنوط ، وكلها جزع وفزع ، وكلها يلوّنها الدم وقد يسّاقط منها قطرات .

ما أنت وهذه الخواطر الدامية أيتها الفتاة النعسة ؟ ! إنما ترحلين بين أمك وأختك وخالك إلى قرينتك التي ولدت فيها لتعيشي بين قوم أحبك وأحببتهم ، وما زالوا يحبونك ولقد كنت تحبينهم منذ حين ، أتذكرين ! لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحنيناً إليهم في المدينة كلما التقينا . ما بالك تخافين منهم وتشفقين من لقاءهم وإنك لواجدة عندهم من الحماية والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه البيوت التي لا يعطفها علينا حب ولا ود ؟ ! ولكنها لا تسمع لي أو لا تفهم عني ، وإنما هي مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل من روع ، تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذي أحبته ، وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفةً مخيفةً مروعة مثيرة للروع . أما هذه التي تسمى أمينة فقد احتر رأسها احتزازاً . وأما هذه التي تسمى مارتة فقد شق صدرها شقاً . وأما هذه التي تسمى ملزمة فقد يقال إنها دفنت حية ولقيت حتفها محتقة في التراب . ما الذي ينتظرن من ألوان الموت هذه ؟ ! وأنا أردّ عنها هذه الخواطر جامدة ، أتلف حيناً حتى أقبلها وأدعها ، ثم أشتد في التلطف بها حتى أستعطفها بما أسفح من دموع ، ثم أعنف وأغلو في العنف وأنذرها بأنى سأقص خوفها كله على أمنا وخالنا ، وسأستوثق لها منهما أو سأمتنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعها تتبعهما ، وسأستجير

لنفسى ولها منهما بهذا الرجل الكريم الذى نحن ضيف عنده . ولكنها إذا سمعت منى ذلك ثابت إلى نفسها وردتني إلى الأناة والمهل ، وأظهرت التجلد والصبر ، وتكلفت ثقة لا تلبث أن تضطرب واطمئناناً لا يلبث أن يزول .

يا لك من ليل طويل بغيص ، لم نعرف فيه راحة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كنا فيه نهب الندم المضى على ما فات ، والخوف المهلك مما هو آت ، والضيق الشديد بما نحن فيه ، والليل يطول ويطول ، كأنه يحمل أثقالاً لا قبيل له بها ولا قدرة له على المسير معها ، فهو يزحف زحفاً بطيئاً أشد البطء ، والهلم يغشى نفوسنا تغشية ، وهذه الخواطر المنكرة تدور فى رعوسنا دوراناً متصلاً يكاد يفنيها . ولكن ما هذا الصوت الذى يشق هذا السكون الذى نحن فيه شقاً ويردنا إلى أنفسنا فرعتين جزعتين كأنه أخرجنا من نوم عميق ؟ إنه صياح الديك يودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح . بماذا تصيح أيها الديك ؟ وبماذا تريد أن تنبئنا أو تنبأ لنا ؟ قالت أختى : أتذكرين صاحبة الودع ؟ إنها رأتني بين رجلين أحدهما آذاني وسيحبنى والآخر أحبنى وسيؤذني ، ألم تفهمي عنها شيئاً ؟ قلت : وماذا تريدن أن أفهم عن هذه العجوز الحمقاء ومن هذا السخف الذى تردده فى كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعاً ؟ كل رجل عندها بين امرأتين أو بين نساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت أختى : فإني أرى هذين الرجلين رأى العين وأعرفهما كما أعرفك ، وستر بينهما وستعرفيهما ، وستبغضين أحدهما أشد البغض وستحبين الآخر حباً كثيراً !

وهذا الهواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ،
والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفراداً بين ذاهب إلى المسجد
وذاهب إلى الحقل ، ونحن نستقبل هذا الصبح الشاحب بنفوس شاحبة
وقلوب واجفة ووجوه حائلة . لو استطعنا لأحجمنا ، ولكننا ندعى إلى
الإقدام ولا نستطيع امتناعاً على هذا الدعاء .

هذان الجملان قد هبنا للرحيل . وهذا خالنا قد قام عندهما كأنه
الشیطان ، وهذه أمنا تدعونا إلى الخروج في رفق . وها نحن أولاء نودّع
من عرفنا من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى
يغمرنا في هذا السهل الريفي الجميل الذي تمتد فيه عن يمين وشمال هذه
الحقول النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار . ولكن هناك نفوساً لا ترتاح
وإنما هي مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإنما هي زائغة دائماً . . . إلى
أين يمضي بنا هذان الجملان !

١٠

إنما يمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث العز والمنعة ،
وإلى حيث نقضى حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقضين
حياتهن هادئات ناعمات ، حتى إذا تقدمت بهن السن وأدركتهن ميعه
الشباب ونضرتة سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى
المجاورة ، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الخيام ،

واستقبلت حياة فيها الجد والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستتبعون
 من بهجة وقرّة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي
 الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يصبّه الضحى علينا صبيّاً والذي يغمرنا ،
 والذي نمضي فيه كأنما نخوض لجة البحر انظري إلى هذا النور الذي يغمرنا
 ويغمر السهل من حولنا ؛ وانظري إلى هذه الحقول تنبسط عن يمين
 وشمال لا تكاد تنتهى ؛ وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان
 والفتيات وقد ملأهم النشاط ، وبعث فيهم الجدة حياة لا حد لها ، فهم
 يذهبون ويحيثون وهم يعملون لا يعرفون كلالاً ولا سأمًا ، وأصواتهم ترتفع
 لا بالشكوى ولا بالأنين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذي يبعث
 في هذا الجو نغمات ساذجة حلوة ، والذي يصوّر الأمل في غير إسراف ،
 والرضا في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على
 كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلى نفسك أتجدين فيما ترين أو فيما
 تسمعين ما يثير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى يأس ؛ كل شيء آمن
 وكل شيء يدعو إلى الأمن ، كل شيء هادئ وكل شيء يدعو إلى
 الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإنما لتحبّ الخوف وتثيره ، وإنما لتبعث
 الأشباح من مكائدها ، وإنما لتغري القلق بالنفوس وتسلبط بهم على
 القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيري في نفسي مثل ما كان يثور في
 نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى وظلمة الليل تغمرنا من كل
 مكان . فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة وأصبحت لا أمد عيني إلا
 (٥)

رأيت ، ولا أمد أذننى إلا سمعت ، فإنى لأضحك منك ومن تلك الهواجس
 التى كانت تروعك ، ومن تلك الأشباح الحمراء التى كانت تترأى لك
 وتمثل أمامك . وإنى لأضحك من نفسى ومن انقيادها لك
 بعض الشيء وتأثره بك إلى حد ما . انظرى واجتهدى فى أن تستحضرى
 هذه الأشباح الحمراء ، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرأ على أن تترأى فضلاً
 عن أن تمثل أمامك أو أن تسيرك . إن الأشباح لا تحب النور ولا تستطيع
 أن تظهر فى وضوح النهار ، إنما الأشباح والخوف والفرع واليأس بنات
 الليل ، تطمنن إليه ويطمئن إليها ، تستظل به ويبسط عليها ظله المظلم
 الساكن الخيف ؛ فإذا ابتسم الصبح وأشرق الضحى واستيقظت الحياة
 ذابت كل هذه المروعات ، وانجابت مع الظلام ، فلم يبق لها أثر فى
 نفس ولا سلطان على قلب . انظرى إلى هذا الضحى المشرق ، وأفيضى
 بعض إشراقه على نفسك . انظرى إلى هذه الحياة التى يملؤها النشاط
 فأفيضى منها على قلبك . ألسنت تحسين الحاجة إلى أن ترفعى صوتك
 بالغناء ، كما يتغنى هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ! ؟ ثم انظرى إلى أماننا
 وخالنا ، إن جملهما ليسعى بهما مرحاً شديداً النشاط ، وإنهما ليتحدثان
 فى هدوء وأمن واستبشار وشئ من الحنان كأنما يذكران أيام صباهما
 وشبابهما ، وكأنما يودان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل هذه السن التى نحن
 فيها . أترين عليهما مظهراً من مظاهر الريبة أو آية من آيات المكر ، أو دليلاً
 من دلائل الكيد ؟ كلا ، إنهما ليمتزجان بما حولهما فإذا هما حياة وأمن
 وأمل ، فلنكن مثلهما حياة وأمن وأمل .

ويسلك حديثي هذا سبيله إلى قلب أختي كما يسلك النور والحياة سبيلهما إلى نفسها ، وإذا هي تطمئن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها لا تسرف في العبوس ، إنما هي كآبة ملحة تغشى نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا يأساً . والطريق تمضي بنا مستقيمة جميلة يجيبها إلى النفوس هذا النور القوي الذي يزداد قوة وصراحة وإلحاحاً كلما تقدم النهار ، وهذه الحقول الحصبة يملؤها هذا النشاط الحصب وهذا الغناء الحلو يرتفع في الجو ، ويمتدح بما يملؤه من الضياء والهواء ، ونحن لا نجوز قرية إلا دفعنا إلى قرية أخرى ، حتى إذا تقدم النهار وكدنا نبغ العصر ، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قال خالنا : لقد آن لنا أن نستريح ساعات ، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل ، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سينتصف حتى نكون قد بلغنا البحر عند بني فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا ولا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بني وركان .

ثم يعرج بنا على القرية وينبئ بنا عند دار العمدة وننزل من هذه الدار أحسن منزل ، وإني لشديدة الرغبة في أن أنفق الليل حيث أنا ، وإن أختي لتشاركني في هذه الرغبة ، ولكن خالنا قد أزمع المسير مع الليل ولم تراجعه أمنا ولم تمنع عليه ، ولم يستطع مضيفنا أن يثنيه عما اعترم ؟

وبينا كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا مما قدم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلم ببعض من

كان يعرف في قرية مجاورة ، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة ، ويقبل الليل وييسط ظلمته بسطاً ، ونكاد نستئس من استئاف السفر ونكاد نطمئن إلى البقاء حتى يسفر الصبح .

ولكن هذا خالنا قد أقبل ، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء إلى الرحيل . وما نحن أولاء نستجيب لندائه ، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ، ولكن خالنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الجمالان قد دفعا بنا دفعاً إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسداً ، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء وانقطعت الأصوات ، إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنبهنا ، فإذا هي أصوات الكلاب تنبح في القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمترج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً ، وهي أصوات الحشرات والضفادع المنبثة في الحقول وعلى شواطئ الأقيّة .

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فننكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء البوم ، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البدو فرجع ترجيعاً جميلاً مخيفاً معاً ، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع . ويمضي خالنا في حديثه مع أمنا ، أو يغرق خالنا وتغرق أمنا في الصمت العميق ، وأنا وأختي نسمع لهذا كله ونتحدث في شيء من الهمس الخائف الوجل كأنما نفر من شيء نخافه أو نقدم

على شيء نخشاه . ومن يدري ، لعلنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء ،
ونشفق من أن تتراعى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إليها أو
نتحدث عنها ؛ والجمالان يسيعان بنا سعيًا فيه إسرار ولكنه إسرار
لا يكاد يحس ، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يجدان
في السعي ! وسكون الليل يثقل شيئًا فشيئًا ، وظلمة الليل تزداد كثافة
من حين إلى حين ، ونفوسنا تريد أن تهيم في هذا السكون وتختلط بهذه
الظلمة وتود لو احتواها النوم ، ولكن أبي لها أن تهيم في سكون الليل وهي
مضطربة وأنى لها أن تختلط بظلمة الليل وفي جنباتها هذه الأنوار الضئيلة
الشاحبة أنوار التفكير في غد والتذكر لأمس ، والرؤية فيما نحن فيه ! ؟
وأنى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئًا فشيئًا وتدنو منا
قليلا قليلا ، وتثير فينا هذا الإشفاق البغيض الذي لا يستطيع أن يكون
أمنًا ولا يبلغ أن يكون خوفًا صريحًا ، وإنما هو قلق خفي ماكر يفسد
من حوله كل شيء ! ؟ ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه
فنغمض أبصارنا حتى لا نراها ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا !
والجمالان يسيعان في جد ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور . ثم
يرتفع صوت خالنا غليظًا مخيفًا ، كله شر وكله نكر وكله نذير : هنا
يجب أن ننزل . وما هي إلا أن يناخ الجمالان ولم تستطع
واحدة منا أن تقول حرفًا أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر في شيء ، وإنما
هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملاً نفوسنا كما أطبقت علينا
وملأت نفوسنا ظلمة الليل . وهذا خالنا قائم كالشيطان ، وهو يأمرنا في

غلظة وعنف أن نزل فلن يمضى الحملان أمامها قيد أصبع .

وها نحن أولاء نزل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمانة تريد أن تسأل فيم إناخة الحملين ، وفيم النزول في غير منزل ، وها أنا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكنى لا أكاد أدير لسانى فى ، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمانة تقول ؛ إنما هى صيحة منكرة مروعة تنبعث فى الجو ، وجسم ثقيل متهاك يسقط على الأرض ، وإذا أختى قد صرعت وإذا خالنا هو الذى صرعه لأنه أعمد خنجره فى صدرها . ونحن عاكفتان على هذا الجسم السريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم فى قوة كما يتفجر الماء من ينبوع . نحن عاكفتان فى ذهول وغفلة وبله ، لم نفهم شيئاً ولم نقدر شيئاً ولم نتظر شيئاً ، وإنما أخذنا على غرة أخذاً واختطفنا هنادى من بيننا اختطافاً . وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها يتفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث فى فيها ، ثم يهدأ الجسم المضطرب ، ويسكن اللسان المتحرك ، ويخف تفجر الدم ، ويمتلىء الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت . ونحن فيما نحن فيه من ذهول وغفلة وبله ، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الدهول كما أخذنا . . .

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغنى من بعيد ، وهذا صوتك يدنو إلى قليلاً قليلاً ، وهذا غناؤك ينتشر فى الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه . وها أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً ، كأنما هى سهام من نور قد تلاحقت بسرعة فى هذه الظلمة فطردت عن نفسى ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا

البلة، وجاءت لها الجريمة منكراً بشعة، والمجرم آثماً بغيضاً، والضحية صريعة مضرجة بالدماء...

إن صوتك لم يوقظني وحدي وإنما أيقظ أمناءها هي هذه تفيق
وها هي هذه تسأل أخاها : أوفعلتها يا ناصر ! ؟ وها هي هذه تغرق
في بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسلمة التي لا تملك حولاً ولا طولاً
إلا سفع الدموع . ويلك أيتها البائسة ! إنك لتستطيعين أن تسفحي دموعك
إلى آخر الدهر فلن تغسلي قطرة من هذا الدم الذكي . ويلك أيتها الأم
الآثمة . إنك لن تستطيعي أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .

نعم ، إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظني وأيقظ هذه الأم المجرمة
التي سفكت دم ابنتها بيد أخيها ، وأيقظ هذا المجرم فنبه إلى أن جريمته
يجب أن تخفى وإلى أن آثار إثمه يجب أن تزول . ولكنه لم يوقظ هنادى
وما كان ينبغي له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقوى ومهما يلح فلن
يستطيع أن ينفذ من أستار الموت . إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة
وإني لأنشط مثلك للصياح ، وإن صوتينا ليملاّن الفضاء العريض
من حولنا ولكنهما لا يصرفان هذه المرأة عن بكائها السخيف ، ولكنهما
لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم في هذه
الحفرة التي لم يفارقنا آخر النهار إلا ليهيئها .

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله ، واستنفدت هنادى حظها
من الحياة ، وماتت لأن شاباً آثماً أغواها ولأنها لم تحسن أن تدفع
عن نفسها غوايته .

إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث ، وإن صوتي لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب ، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ من إخفاء جريمته ومحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول في صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه النذير : هلم فقد آن أن نرتحل ، فإذا أبطأنا عليه ردد هذه الكلمات في صوت أشد ترويعاً وأكثر امتلاء بالنذير . ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا الوباء ألم بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلاً قليلاً ، وانقطع عني صوت خالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها ، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

١١

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغت ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي عني لحظات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتراكم ويركب بعضها بعضاً وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولي ؛ كل شيء وكل إنسان ، ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة

المنكرة البشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا جرت في جسمي
رعدة عنيفة مؤلمة وأخذ نفسي اضطراب لا حد له ؟

أسئلة ألقيتها على نفسي ألف مرة ومرة ، وسألقتها على نفسي ألف
مرة ومرة ، فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب . وإنما أذكر صوتك أيها الطائر
العزيز وهو ينحرف في أذني ، ويفني قليلا قليلا كأنه صوت المودع يبلغ
المسافر والقطار يبعد به عنه شيئا فشيئا . إنما أذكر لك الصوت البشع
الحجر صوت خالنا الآثم وهو يتهدج ويبعد عني شيئا فشيئا في ثقل
وبغض واشمئزاز . . .

إنما أرى قطعة من الليل تسعى إلى سعيًا هادئًا أول الأمر ولكنها
تسرع شيئًا فشيئًا ، وهذه الظلمات تتكاثر من حولي كأنها الأمواج
العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد ، وهأنا هذه يغمرني الموج وأدخل
في الليل فلا أحس شيئًا ولا أرى شيئًا ولا أشعر بشيء ، يا له من نوم
عميق طويل ! إن الأحلام قد ألحّت عليه ، فهي تروّعني فيه ترويعًا
متصلا ليس إلى انقطاعه من سبيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟
أكنت عاقلة ؟ أكنت ذاهلة . لا أدري إنما أعلم أنني كنت شاعرة
شعورًا غامضًا ولكنه قوى ملّح كأنني قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامي
من الأرض في مكان رحب ، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع
العين فيه إلا على هذا ينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم ، وعلى ظلال
أخرى تجيء كأنما أقبلت ترور هذا الظل ، فهي تلم به حينًا وكأنما

تناجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأني أسمع نجوى هذه
 الظلال ولكني لا أحقق ما أسمع ، وكأني أفهم نجوى هذه الظلال
 ولكني لا أثبت ما أفهم . . . وأنا جامدة هامدة لا أحس ولا أرى إلا
 هذا الينبوع الذي يتفجر في غير انقطاع ، وهذا الظل الذي لا يتحول
 عنه وهذه الظلال التي تغشاه بين حين وحين . يا له من ينبوع كريبه أود
 لو أحول عيني عنه ، ولكن حمرة تجتذب عيني إليه اجتذاباً ! إنه
 لينبوع غزير ، ولكنه لا يتفجر منه الماء ، وإنما تتفجر منه الدماء .
 يا له من ظل حزين كثيب شاحب مسرف في الشحوب أحاول أن أغمض
 عيني وأن أغلق نفسي فلا أحس له محضراً ، ولكن شحوبه يستهوي نفسي
 ولكن حزنه يمزق قلبي ولكن انحناءه على هذا الينبوع يملأني لوعة وروعة
 وابتئاساً ! يا لها من ظلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في
 حركاتها ما يملأ النفس جزعاً وهلعاً ! ما لي لا أثبت عيني في هذا الظل
 المقيم ، وما لي لا أثبت عيني في هذه الظلال المضطربة التي تذهب وتجيء ؟
 أنا أمة أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة ؟ ألسنت أثبت عيني في هذا الظل
 المقيم ملامح أختي فما لها إذن لا تكلمني . . . وما لها إذن لا تدعوني . . .
 وما لها إذن لا تناجيني ؟ لقد عرفتها محبة لي واثقة بي مطمئنة إلي ، فما لها
 لا تظهر لي شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدى لي شيئاً من هذه الثقة ،
 ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكبة على هذا الينبوع
 تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة في المرأة . عم تبحث في هذا الينبوع ؟
 أترها تلمس صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست

ترانى؟ ما لها لا تجيبني ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترقّ لي ولا تعطف علي ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من فمي باسمها في صيحات قوية عنيفة متلاحقة ؟ ! إني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أختي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تخيفها وترعجها ! فهذا ظلها يستخفي وتستخفي معه الظلال الأخرى ، ويستخفي معها الينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلىّ ويدنون مني ويستجيبون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتيتهم ، ثم أخافهم ، ثم أبغضهم ، ثم أتق محضرهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقبلوا يرفقون بي ويسألونني عما أجد .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بغضي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أمي وإني لأكره أن أرى أمي . كلا ! لا أكف عن هذا الصياح لعل أهل الدار أن ينصرفوا عني فيجنبوني محضرهم الكريه إني لأخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء ، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار . وهذا الينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قوياً غزيراً ، وهذا ظل أختي ما كئلاً لا يريم ، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجيء . إن لي بهذه الظلال لعهداً لقد رأيتها ولقد سمعت عنها حديثاً ، لقد حدثتني عنها أختي في تلك الليلة التي قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الآثم .

نعم إن لي بهذه الظلال الحمراء ظلال مرتا وأمينة وملزمة تلك التي كانت تترأى لنا فيملاً قلب أختي فرقاً وهلعاً وروعاً . . . إن لي بهذه

الظلال لعهداً وإني لأعرفها وإني لأفهم الآن إلحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم . لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبثه ما وجدت من ألم وحزن ، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس . إن نجوى الظلال لغريبة . . . ليتنى استطعت أن أفهمها ، ليتنى استطعت أن أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال ! ما بال أختي لا تناجيني ، أتراها لا تحس محضرى ، أم ترها لا تعرف كيف تتحدث إلىّ أو تفهم عني ؟ أنتغير لغة الناس إذا ماتوا ؟ ! لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقيه إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء . . .

إني لأعرف هذه الظلال . لقد كنت في ضلال إذن حين كنت أزعّم لأختي في بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل ، وأنها تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه ؛ والظلال ملحمة في المثل أمامي لا يصرفها عني مطلع النهار ولا يصرفها عني مقدم الليل . إن الظلال إذن لا تهاب نوراً ولا تألف ظلمة ، ولعلها لا تعرف نوراً ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا ضوء النهار فلا نرى الظلال التي تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأتى وتسمع كل ما نقول . ولعلها ترثى لنا ، ولعلها تسخر منا ، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا لا نفهم عنها شيئاً . يا للهول إن تدفق الينبوع ليشد ، وإن الدم لينتشر من حوله انتشاراً ، وإن الحمرة لتصبغ كل شيء من حولى ، وإن هذه الظلال لتدنو منى كأنها قد عرفتني وكأنها تريد أن تقبلني ! يا للهول ، إن الروح ليملاً قلبي ، وإن الصياح ليتفجر من فمي فيملأ الجو من حولى كما ينفجر الدم من الينبوع فيصبغ الأرض بحمرته ، وإن أهل الدار ليقبلون على ، منهم الجزع ، ومنهم المطمئن ،

وهم يرفقون بي ويعطفون على . . !

وهذه أمي ، يا للهول ! ما أسمع هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بغضى لهذا المحضر ! إنها لتدنو مني وإن الدم ليجمد في عروقي لمقدمها . إنها لتضع على رأسي خرقه مبللة وإني لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة ، ولكن لينصرف عني هذا الوجه فأني أكره أن أراه ، لتردّ عني هذه المرأة فأني لأخشى أن تقتلني . . . وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا آويت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء ؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء ، وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصياح . أليس لي سبيل إلى الراحة من هذا العناء ؟ ما أكثر ما طلبت وألححت في طلبها ، وما أكثر ما فرّت مني وامتنعت عليّ ، وما أكثر ما خيل إلى أني أجرى في إثر شيء أتمناه أشد التمتي وأحرص عليه أعظم الحرص وأجد في طلبه كل الجهد ، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبة فإذا المسافة بيني وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبينى بعيد ، وإذا أنا معذبة أشد العذاب بالاضطراب الملح المضني بين وجوه أهل الدار التي أكرهها ، وهذه الظلال التي يؤذيني منظرها ويشير في نفسي ألماً لا آخر له . . .

ولكنني أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم ، قد ألح الضعف على فما أكاد أتحرك . على أني أجد في هذا الضعف نفسه دعة وأمناً فأستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلاماً ، وأجد في نفسي دهشاً لزيداً حلواً لأنني أفقد شيئاً كنت أخاف أن أجده ، أفقدته افتقاد

السعيد بالنجاة من شر يخشاه . فقد يخيل إلى أن قد بعد العهد بيني وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار ، وأنى قد قضيت وقتاً غير قصير لم أر حمرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتي بالصياح ولم يسرع إلى أهل الدار . ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى أجتهد ما استطعت في أن أذود هذه الخواطر عن نفسي مخافة أن يطول تفكيرى فيها فيكون ذلك استحضاراً لما أتمثله من الهول ، ودعاءً لما أجد من السعادة في الإفلات منه ، ورفعاً للستار عن الينبوع الذى منه يتفجر الدم والذى تطيف به الظلال . فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسي ، وأستسلم لهذا الضعف الذى أجده ، وأود لو بقيت كما أنا هامدةً خامدة لا أقدر على شئ حتى على التفكير ، ولكن هذه هي أُمى تدنمنى وعلى وجهها الكتيب شئ من آيات الرضا ، وهى تقول لى فى هذا الصوت الذى يخيل إلى أنى لم أسمع منذ زمن بعيد : لقد نمت الليلة كلها يا آمنة ، فأنت بارئة ، وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء . ليتها لم تقبل علىّ ، وليتها لم تدن منى ، وليتها لم تتحدث إلىّ ! فقد اقشعر لقرها بدنى كله ، واضطربت لصوتها نفسى كلها ، أخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني ، وأخذت الأشياء تضطرب من حولى اضطراباً وآذانى هذا كله أشد الإيذاء حتى كدت أصبح لولا أنى حبست صيحتى فى حلقى ولكن لم أستطع أن أمسك يديّ وأن أنعهما عن أن ترتفعا إلى عيني لتردا عنهما منظر هذه الأشياء الراقصة ، وظننت الأم البائسة أنى أتقيها فولت باكية ، ووجدت فى انصرافها عنى سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أمي عن عيادتي
والعناية بي ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرها ،
ولم يكن بد من أن تنظر إلىّ وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلىّ وأسمع منها
وأردّ عليها رجع الحديث ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفسي من الموجدة
والغيظ ما كان يردني أحياناً إلى بعض ما كنت فيه ؛ ولم يكن ذلك دون
أن يثير في نفس هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشقاءً إلى شقاء فترسل
عباراتها حيناً وتهدياتها حيناً آخر ، وربما أثار في نفسها غضباً تجتهد
في حبسه أن ينفجر . وأنا أدنو إلى البرء وأستزيد من القوة وأسترد النشاط
قليلاً قليلاً ، وآتي بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع
الانتقال ، ثم تثوب الحياة إلىّ في قوة كأنما كان بينها وبينى سد ، فلما
أزيل أخذت تغمرني من كل وجه ، وإذا أنا أنهض وأسعى ، وإذا
أنا أسترد حظاً من القوة غير قليل وأجد رغبة في كل شيء إلا في الحديث .
وأمي تدور حولي وتتلطّف لي وتغلو في العناية بي ، وتود لو تجد إلى
نفسى سبيلاً ، وتنفق جهوداً مثيرة للثناء تريد بها أن تصل أسباب الحديث
بينها وبينى ، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شيء ، وقد ألقى بين نفسها
ونفسى سور صفيق فهما لا يلتقيان . ومع ذلك فإن خاطراً من الخواطر
كان يتردد في نفسى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه دفاعاً متصلاً
لأننى كنت أجد في اضطراب نفسى به ألاماً فيه الخوف والرعب وفيه البغض
والحقْد . فقد كنت أسأل نفسى وأريد أن أسأل أمي أو أن أسأل بعض
من حولي عن خالنا ذلك الشيطان الآثم المرید أين هو وأين استقرت به

الدار ؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لي فيما كان يتمثل لي من الصور أثناء العلة ، وما أذكر أني سمعت له ذكراً أو عرفت من أمره خبراً منذ أخذ البرء يسعى إلى ويدب في أعصابي ، وما أذكر أن أحداً من أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل الدار وأشرت معهم في بعض شؤون الحياة . وكنت مع ذلك أريد أن أعرف من أمره بعض الشيء ، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشيء ، أحيى هو أم ميت ؟ أأفلت بجريمته أم أخذه السلطان ؟ أمقيم هو في القرية أم ذهب هو في الأرض يلتمس مأمنه بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب ؟

ما أكثر ما ترددت في نفسي هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها صدري وما أكثر ما هم لسانی أن ينطق بها ، ولكنني كنت أحبسها في ضميري حبساً خوفاً منها وبغضاً لهذا الرجل الأثيم . على أني لم أستطع ذات صباح أن أملك من أمري ما تعودت أن أملكه فسألت أمي وقد خلوت إليها ، سألتها وأنا أكاد ألوى وجهي عنها : أين هو ؟ وما أسرع ما فهمت عني ، وما أسرع ما أجابتني وهي تشير إلى بالصمت : لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة سخينة ، ولكن بكاءها لم يدع بكائي وحزني لم يثر حزني فقد كان بين نفسها وبينني سور صفيق . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . . فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتمساً مأمنه وراء هضبة من هذه الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن

أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل الريف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي إثمه نسياناً ، وكان قد انجلى عنه هذا الدهول الذى غشيه بعد أن سوى الأرض على ضحيته .

ولم تتمثل له هذه الصور المروعة التى تتمثل لى ، ولم تنهكه هذه الحمى التى أنهكتنى ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع ويشترى ، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا ، ويلهو مع رفاقه إذا ألها ، كأنه لم يأت شيئاً ولم يقترف إثماً ولم يسفك دم ابنة أخته بيده . . .

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود إلى الواحات فيمن يعود ، يحمل وجهه البغيض ونفسه المحرمة وضميره الآثم ، ويحمل مع هذا كله تجارة قد ترتضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار . وسيلقونه مغتبطين بلقائه ، وسيلقاهم سعيداً بالعودة إليهم لا يحس ألماً ولا ندماً ، وسيرتفع صياح الفرح لمقدمه فى هذه الدار ، وسيرتفع صياح الفرح فى القرية كلها لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، وسيقضى الناس هنا أياماً كلها أعياد يملؤها السرور والحبور . أما أنت أيها الأخت التعسة البائسة فلن يذكرك فى هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التى لا تستطيع أن تذكرك إلا سراً بينها وبين نفسها ، وإلا هذه الفتاة التى لا تكاد تفكر فيك حتى يترأى لها الينبوع الأحمر والظلال المطيقة به فى ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون ! . .

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .
 حرام على أن أردّه ، وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرح
 والابتهاج . إني لعاجزة عن لقاءه ، وإني لخليقة إن لقيته أن أفصح من
 أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سراً . أليست هنأدى قد ذهبت مع من
 ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى ، وافتقد
 أهل الدار آمنة فلم يجدوها ، ولو أنهم افتقدوها في القرية كلها لما وجدوها
 فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصوبةً نحو
 الشرق . . .

١٢

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبي رحمة لها وإعجاباً بها
 وخوفاً عليها . وأى قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد
 قذفت بها الأحداث في لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهي
 وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها
 إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إفعاماً ، وعجزت نفسها حتى عن
 الأمل ، فهي قد فرّت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن
 تخلص من هذه البيئة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا
 الشيطان المريد الذي كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأى قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرة التى لم تكد تتجاوز الصبا ،
والتي فرت من أهلها فهي تسعى لا تلوى على شيء ، نحيلة هزيلة ،
بائسة كئيبة لا تدرى أين ينتهى بها المسير ، ولا تعرف كيف يتاح لها
القوت ، بل لا تفكر فى شيء من هذا ، وإنما تمضى أمامها مسرعة فى
المضى يدفعها عزم لا يعرف الكلال ، وبغض للشر لا هوادة فيه ،
وثقة بالعدل لا حد لها .

وأى قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها فى
الطريق العامة إلى غير غاية ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحداته
السن وشيء من جمال يغرى بها كل غوى ، ويطمع فيها كل مفسد ،
وما أكثر العواة والمفسدين فى هذه الطريق العامة التى تستقيم وتلتوى بين
قرى الريف !

لك الله أيتها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهبين ! ألم تفكرى فى هذه
الكوارث والخطوب التى تضميرها الحياة للضعفاء والبائسين ، وللضعيفات
والبائسات خاصة ، وتتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هى مصدر خصب
للشر والضر ، وينبوع غرير للسينات والآثام ؟ ألم تفكرى فى هذه
الأقاصيص التى كان يمتلىء بها صباك والتى كانت تسلى نهارك وتروّع
ليلك ، والتى كانت تمتلىء بأحاديث الأغوال وقد تفرقوا على الطريق
يعترضون المارّ حين يمر بهم وقد انقطعت به السبيل فإذا هم يضمرون
له الهول كل الهول ، ويسرون له البغض كل البغض ، وإذا هم لا يكادون
يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه

وعظمه ، وحتى تضطرم في أجوافهم غالة لا يرونها إلا دمه ، وهو يبلغهم خائفاً وجلاً قد ملأ الجزع قلبه وفرق الهلع نفسه ، فإن كان قد حفظ الوصية ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابتدره بالسلام فقلّم أظفاره واضطره إلى السلم والمواذعة ، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هياً نفسه للقاء الخطوب مر بالغول فالتقمه التقاماً والتممه التهاماً ، وقطع الوسائل بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يَمْضِي للقائهم أمامه . . . ؟

ماذا أعددت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منبثون في الطريق ؟ ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئات قد انتشروا في الطريق ، منهم من جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من برز ضاحياً ومنهم من استخفى في الحقول واختبأ في المزارع ، منهم من يظهر مظهر الغول كريهاً مخيفاً لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلىء القلب منه فرقاً وهلعاً وحتى تندفع الغريزة إلى اتقائه ومحاولة اجتنابه والحلاص منه ، ومنهم من يظهر مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب ، وتأنس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا الجيء إليه إلا غدرًا ولا يظفر عنده الوثاق به إلا بالشر والنكر والبوار . منهم من اتخذ زى الرجل ، ومنهم من اتخذ زى المرأة ، وكلهم غول قد هيأته الأحداث لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي نبذتهن الأسرة أو اجتثتهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات بها غافلات عنها ، والحياة تلعب بهن ، تقذفهن من مكان إلى مكان ،

وتنقلهن من شر إلى شر ، حتى ينتهى بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى الغول المتنكر ، فإذا هن فريسة لهذا أو لذاك ، يلقين العار والخزى ، ويلقين البؤس والضميم ، ويلقين المرض والشقاء ، ويلقين الألم دائماً ، وقد يلقين الموت أحياناً . . . ! ؟

لم تفكر آمنة فى شيء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت أسرتهما كما ينطلق السهم ، ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهداً ولا مشقة ، بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تمضى كما يمضى السهم لأنها لم تكن تفكر إلا فى سجن قد أفلتت منه وهى تريد أن تبعد عنه ، وفى حرية قد دفعت إليها وهى تريد أن تنغمس فيها انغماساً .

فهى تمضى وتمضى لا تقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التى تتحدث بها الجذبات والأمهات ، قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حوّل وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، والفتاة تسعى مسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكئيب وجسمها الضئيل النشط ضوء الشمس ونسيم الصباح واستيقاظ الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك حتى يغمرها الضحى وحتى تغمرها الحياة التى نشطت من حولها ، وإنما هى مضطرة بحكم الغريزة وبحكم هذا الإعياء الذى أخذ يدرك جسمها الضعيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضى مبطئة وتسعى هوناً . ولا يكاد ينتصف النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره ، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر حتى تكون قد بلغت مأمنها وأفلتت من طلب الطالبين وانتهت إلى قرية

من القرى فالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة وشيئاً من طعام وأن تنفق عندهم الليل .

نعم إنى لأرانى فى هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسى الضعيفة البائسة ، وإلا جسمى النحيل الضئيل ، وإلا ثياباً بالية أو كالبالية ، وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت ، ولا أسأل عما أنا مقدمة عليه من الأمر ، ولا عمن أنا مقبلة عليهم من الناس ، إنما هو الهيام فى الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذى نسميه حب الحرية والذى يكلفنا أحياناً من أمرنا شططاً . أكنت خائفة . . . ؟ أكنت آمنة . . . ؟ لا أدرى ! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على قلبى كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها .

كنت أطمئن إلى أنى لن أرى أمى ولن أسمع صوتها ، ولن أرى أهل الدار وأشاركهم فى شىء ، ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ذا النفس الفاجرة والقلب الغليظ ، ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقربه إلى وترضيه لى ، فيمتلىء قلبى أمناً وهدوءاً وتبسم لى الحياة عن أجمل الصور وأحفلها بالأمانى والآمال ، وأجد فى ذلك قوة وشجاعة وصبراً ، فأمضى لا يدركنى الإعياء ولا ينالنى الكلال . ثم كنت أذكر أختى ولاسيما بعد أن عبرت البحر وأخذت الطريق تختلط على ، وأخذت أحاول أن أتعرف أين انحرف بنا خالنا المجرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذى اقترف إثمه فيه .

كنت أذكر أختى فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامى وإذا أنا

أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة ، وإذا أنا أهم
أن أسعى إليها وأن أمسها بيدى وأن آخذ معها فى الحديث ، وإذا أنا
أنتبه للخطب وأتبين الحقيقة الواقعة ، وإذا ينابيع الحزن تنفجر فى قلبى
وإذا الحزن يجرى مع دمى ، وإذا جسمى كله نار مضطربة واحة محرقة ،
وإذا دموى تنهمر على خدى ، وإذا أنا مضطرة إلى أن أنتبه ناحية
من الطريق لأبكى على مهل على غير مرأى من الناس .

ثم أنهض مستأنفة للسعى ، وإذا أختى تسيرنى ، وإذا الظلال التى
كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بى ، وإذا ظلال أخرى تملأ
الفضاء من حولى لا أدرى أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء ،
ولكنى أراها تكثر وتختلط وأسمعها من حولى تصخب وتلغظ حتى أخاف
على نفسى الجنون .

أنا على ذلك كله ماضية تتقاذفى القرى وتتدافعى الضياع ،
أستضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر ، أعمل فى الحقول مرة وأعمل
فى البيوت مرة أخرى ، وهذان اللونان من الشعور يختلفان على قلبى
ويتعاقبان على نفسى لا يمهلاننى فى اليقظة ولا يعفیانى فى النوم ، أنا
مضطربة دائماً بين أهلى الذين فررت منهم فراراً ، وبين أختى وصاحباتها
اللاتى يستجبن لى كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاءً فيسرعن إلى الداعى .
وأنا ماضية أمامى أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ولى من غير شك
غاية أعرفها وأسعى إليها ، ولكنى لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها ، وإنما
أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنها تدفعنى إليها الغريزة دفعاً .

أنا ماضية نحو الشرق ، لا أنحرف عن غايقي إلى يمين أو إلى شمال
إلا لأقضى ليلة في هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يوماً
في هذه القرية أو تلك ، ولكنني على جناح سفر دائماً ، متجهة نحو
الشرق دائماً ، ممعنة في الشعور بالأمن كلما ازددت من الغاية دنواً ومن
المدينة قرباً . فالمدينة إذن هي غايقي من كل هذا السعي ، فيها أتمس
الأمن وبين أهلها أتمس الحياة الوداعة ! وبيت المأمور هو غايقي
من المدينة إليه ألقأ وإلى من فيه أفزع وبمن فيه أستعين ، في ظله أريد
أن أعيش ، وعند أهله أريد أن أودع قلبي ، وعند خديجة من أهله
خاصة أريد أن أتمس الراحة لهذه النفس المعذبة ، والشفاء لهذا القلب
المريض . لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ، ولن أبل من علتي حتى أرى
هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات ، وأستأنف حياتي مع الخدم والسادة
كعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشؤم . إذا بلغت
هذه الدار فستقصر يد خالي دون أن تبلغني ، وإذا اطمأن بي المقام في
هذه الدار فلم يجد الروع إلى نفسي سيلاً . ولكن ما خطب أهل الدار
وما خطبي إن سألوني أين كنت ؟ كيف أجيبهم . . . وبم أجيبهم ؟
أفقص عليهم حديثي كله أم أطويه عنهم طياً ؟ بل ما خطب أهل الدار
وما خطبي أن رأوني فأنكروني ثم أبوا أن يفتحوا لي بابهم وأن يلقوني بما أحب
أن يلقوني به من الرضا والعطف والابتسام ؟ ما خطب خديجة وما خطبي إن
رأنتني فأعرضت عني لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من
يقوم منها مقامى ويلهيها كما كنت ألهيها ، ويشاركها في الجدل واللعب

كما كنت أشاركها في الجدل واللعب ؟ أين أذهب إذا نبت في هذه الدار ،
وإلى من ألقا وعلى من أعول إذا تنكر لي أهل هذه الدار ؟

١٣

كلا ! بل هذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة ، مغرية مطمعة ،
لا ترد طارقاً ولا تصد راغباً ، ولا تتجههم لزائر ولا تنبو بضيف . وإني
لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أرفع إليها دفعاً أو كأنما تدعوني
ملحة فاستجيب للدعاء . وإني لأرى دخاناً يصدر عنها وينشر في الجو
فلا أتمثل النار التي تصدر عنها في المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله
من الخدم يذهبون ويحيثون وأسمع ما يقولون ، وكأني أشاركهم فيما يأتون
من حركة ، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث . وإني لأدنو من الدار
فأرى نافذة مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فيها من أداة وأثاث ، وإنما
أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به ، أو عكفت
على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأني أشاركها في اللعب
أو أشاركها في الاستظهار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإني لأدنو من الدار
فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرتني وكأني قد رجعت إلى مثل
ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل ، وشعاعاً منتشراً مستفيضاً في هذه
الحياة التي تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وهأنذا هذه أبلغ باب الحديقة فلا أتردد في ولوجه ، وأمضي أمامي

مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي كنت أفضيها مع أمي وأختي في ذلك المنزل الحقيق ، وإني لأمضي كما تعودت مسرعة لا أروي على شيء ، وإني لأصعد في السلم لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وإني لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصادف سيدي وصديقتي عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكننا كنا نلتقي على الضحك والعبث فما لنا الآن لا نضحك ولا نعبث . . . ؟ ! أما هي فواجحة ذاهلة قد أخذت على غرة ، وأما أنا فغارقة في البكاء .

ثم هي تسألني أين كنت . . . ! ومن أين أقبلت . . . ؟ وماذا صنعت في هذا الوقت الطويل . . . وأنا لا أجيب . وأنتى لي أن أجيب بغير هذه الدموع التي تهمر ، وهذه الزفرات التي تنفجر ، وهذا الشهيق الذي يتردد في حلق متصلا ببعضه ببعض يزداد شدة وعنفاً حتى يكاد ينتهي بي إلى أزمة من هذه الأزمات التي تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء . . . !

وسيدي وصديقتي قد أقبلت عليّ فتتلطف لي وترفق بي وتهوّن عليّ بعض ما أجد ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجد . ثم يسمع الشهيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت ، وإذا هي ليست أقلّ دهشاً ولا وجوماً من ابنتها ، ولكنها تصرف الفتاة عن صرْف شفقة عليها من هذا المشهد الذي قد يؤذي نفسها الشابة الناشئة ، ثم تدعوني إلى أن أتبعها ، ثم تهدي روعي وتتلطف لي في الحديث وتسألني عن أمري فلا أجيبها بشيء ، أو لا أكاد أجيبها بشيء ، إنما هي جمل متقطعة غارقة في الدموع ،

ففيها ذكر للرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤية أهلنا فيها ، وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بنا هنا لم نكن ننتظره ولا نقدره ففقدنا أختي ، فيها ضيق بحياة القرية في ذلك الحزن المتصل ، وحنين إلى السادة الذين لم ألق في خدمتهم إلا خيراً وبراً ، ثم فيها ذكر العودة المنفردة في الطريق الطويلة الملتوية المخوفة ، ثم أنهما را للدموع وانكباب على سيدتي أقبل يديها وقدميها كأي أشفق أن تردني رداً أو تدفعني عن الدار دفعاً ؛ ولكنها حذبة على ، رفيقة بي ، تقيمني وتنهضني وتأمرن أن أذهب إلى حيث أصالح من أمري وأستأنف عملي في الدار ، كأي لم أفارقها شهراً ، وكأي لم أفارقها فجأة في غير استئذان ، وكأي لم أزد على أن غبت يوماً أو أياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . . ! وأنا أذهب إلى حجرتي فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد ، ولم تسكنها خادم بعدى ، ثيابي فيها كما تركتها وأدواتي فيها كما غادرتها لم ينقل شيء منها ولم يحول عن مكانه ، ثم ما هي إلا أن ألقى الخدم ويلقوني بشيء من الدهش والوجوم ، وأخذ في بعض الحديث ، ثم أنظر فإذا كل شيء قد استقر وإذا أنا واحدة في الدار من أهل الدار كأن لم يكن بيني وبين الدار فراق .

ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة على ووجدها بي ، وإبائها على أهلها أن يتخذوا لها خادماً غيري ونزول أهلها عند ما كانت تريد .

ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحيها من قبل . ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من

الآلام ، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور ! وكيف لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لمثل الجنون ، وقد تعرضت فيها لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك لا يكادون يشعرون بأنى فارقهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأنى قد فارقهم وقتاً طويلاً ، أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس أنهم قد نسوا رحلتى ونسوا عودتى وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون فى ولا يسألون عنى . ولكنى أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر أنى قد أخذت من أهل الدار فتاة فدفنتها هناك فى قرية بعيدة من قرى الريف تظلمها هضبة من هذه الهضاب التى تلى الصحراء ، ثم رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت منهم أمانة الضاحكة فى أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ؛ أخذت منهم أمانة الغرة الساذجة التى تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شىء ، والتى لا ترى فى الحياة إلا لعباً ، والتى تخدم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها تلعب ، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف الهم ولا تتمثله ، ولا تعرف أن للحياة أثقلاً وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام ليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار

من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ؛ أخذت منهم أمانة التي كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتنمو ، فيها نضرة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أخذت منهم أمانة هذه ففرقت نفسها تفريقاً ، في الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب تركت بعضها في بيت العمدة الذي ضيقنا حين سمعت لحديث أختي وحين سمعت لحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تتراءى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضى بنا الجمالان في الطريق الصامته وقد تقدم الليل وثقل ، ثم تركت أكثرها في ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذي سال ، ودفن مع الجثة التي دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت سائرها نهياً لتلك العلة التي ذهبت بما بقي من نفسي وإن أبقت على بقية ضئيلة من جسمي أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً . أخذت منهم أمانة هذه وفرقتها على هذا النحو بين المدينة والقرية ثم ردت عليهم أمانة أخرى قد تشبه تلك في بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما بقي من اعتدال القامة ، وقد تشبهها في طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولكنها تخالفها بعد ذلك في كل شيء .

رددت عليهم أمانة الحزينة دائماً ، الواجمة في أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة . رددت عليهم أمانة التي رأت الشر بشعاً والإثم عريان والجرم منكراً ، فلأت نفسها من هذا كله وإذا هي سيئة الظن بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الحالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسبغته عليها إسباغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم أمانة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها ، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تنصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الخدمة والدرس إلا عناء وجهداً . ويح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويستأثرون عن تلك الفتاة التي أخذتها منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يألفوني كما عرفوا تلك الفتاة وألفوها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون بي ولا ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالناية والرعاية والعطف . أولم أتحدث إليهم بذلك المصاب العظيم الذي قد ألمّ بنا فملأ قلوبنا حزناً وبؤساً ؟ وإذن فهم يعزوني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إليّ كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إليّ كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد أوت إليهم فهم يؤوونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء .

وخديجة . . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعيم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحة ومرحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة

تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبليغ
 بغريزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة .
 إنها لتفهمني في غير سؤال ، إنها لترحمني في غير تكلف ، إنها لترثي
 لي في غير كبرياء ، إنها لتنصرف بي عما ألفت من فرح ومرح ومن
 دعابة ولعب ، إنها لتتحدث إليّ حديث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها
 تشغلني عن همي بما تقص عليّ من أمرها أثناء غيبي وبما تقرأ عليّ مما
 قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرأني مما لم أشاركها في قراءته ، إنها لتفتح
 لي أبواباً ما كانت لتخطر لي على بال . إنها لتنبئني نبأ عجيب لم أفهمه
 إلا بعد مشقة وجهد وتكرار ! تنبئني بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى
 تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟
 إني أعرف أن هناك لغة الريف التي كنت أتحدثها ، ولغة القاهرة التي
 تتحدثها خديجة ، ولغة ثلاثة نقرأوها في الكتب فلا نعجز عن فهمها
 وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن
 تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ . إنها تظهر لي كتباً ما كنت أقدر
 أن أراها ، وإني لأنظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإني
 لأحاول النظر في الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخرأً ، ولا أعرف لها
 رأساً ولا ذيلاً ، وإنها لتضحك في رفق ، وإنها لتحس شيئاً من الكبرياء
 لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإنها لتحاول القراءة في هذه الكتب فتبلغ من ذلك
 ما لا أبلغ ، وإنها لترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها ما تقول بالعربية
 وأدهش وينتهي بي الدهش إلى أقصاه . . .

وهذا أستاذها السوريّ قد أقبل وإنها لتلقاه فيتحدث إليها وترد عليه بهذا الذى لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفنتة . وهذه خديجة تكبر فى نفسها وتكبر فى نفسى وتقوم منى مقام المعلم ، وإذا هى تقرأ فى هذه الحروف التى لم أكن أقرأها ، تعلمنى هذه اللغة التى لم أكن أعلمها ، وإذا أنا تلميذة لها فى الصباح وتلميذة معها فى المساء ، وإذا المعلم بارع وإذا التلميذة على حظ من ذكاء ، وإذا أنا أجد فى هذه الحياة الجديدة وفيما نقرأ معاً وما نتعلم معاً عزاء أىّ عزاء ، ونسياناً أىّ نسيان ؟ وإذا الأستار تلقى شيئاً فشيئاً بينى وبين هذا الماضى البشع القريب ، وإذا كل شيء فى هذا الماضى ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان ولا يتضاءلان ، وإنما يرتسمان فى نفسى ارتساماً قوياً ويتمثلان أمامى تمثلاً متصلًا ملحاً ، وهما شخص أخى صريعاً يتفجر من صدرها الدم فى الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض الذى صرعت فيه .

١٤

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض الذى صرعت فيه . لقد منحها الحياة ، ولقد قضى عليها بالموت . وهل ذاقت البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التى

جنتها في هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد ! إلى هذه الدار دُفعت حين هبطت من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلو من طبيعتها ما رقق لها العيش وقد كان غليظاً ، وجبب إليها الدهر وقد كان بغيضاً .

فيها عرفت الترف واطمأنت إلى النعيم ! ولم تكد تنشأ وتنمو حتى مدّ لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ، فأسرعت إلى ما كان يترأى لها من ذلك جاهلةً له ، مفتونة به ، مهالكةً عليه ، ثم انصرفت كارهةً عما بلبت ، وما أدري ماذا كان يحزنها ويمزق فؤادها تمزيقاً حين كانت تقص على أنباءها وتحدثني بأحاديثها : أهو الندم على ما قدمت من ذنب واقترفت من خطيئة ، أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحرمت من نعيم ؟ وما أدري ما الذي كان يملأ قلبها فرقاً ورعباً حين كانت تترأى لها تلك الأشباح الحمراء : أهو الموت الذي كانت ترى نذيره منكراً بشعاً ومسمعه صارخاً ملحاً ، أم هو اليأس الذي كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب ، ويلقى بينها وبين الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تُجتاز ؟

نعم ! هذا المهندس الشاب ! لقد ارتسم شخصه في نفسي ارتساماً قوياً ملحاً ليس إلى محوه من سبيل . ولقد كنت أرى أختي فإذا هو ملازم لها كأنه الظل ، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التي كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في الطريق ! بل لقد تفرقت عن أختي كل هذه الظلال وانمحت انمحاء ، ولم يبق معها إلا هذا (٧)

الظل الذى لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسى اضطراباً عنيفاً ، وحتى يشور
فى قلبى شعور قوى مختلط غريب شديد التعقيد ، شعور فيه الخوف
والرغبة ، وفيه البغض ، وشئ يشبه الحب ، أو حب الاستطلاع على
أقل تقدير . . .

من هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟
أى شئ فيه أغوى هذه الفتاة البائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى
أن يكون حظى منه إن لقيته ، وأن يكون حظه منى إن لقينى ؟ أو أحبه أم
أبغضه ؟ أيجبنى أم يبغضنى ؟ ما هذه الغواية التى أفسدت على أختى أمرها
وأفسدت علينا جميعاً أمرنا ، وقضت على أختى بالموت ونغصت علينا جميعاً
لذة الحياة ؟

خواطر كانت تملأ قلبى إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أمسيت ،
وكانت تلح عليه بين ذلك فلا تردّ عنه إلا فى شئ من الجهد والعنف
حين تلح على خديجة فى الحديث أو فى القراءة أو فى مشاركتها فيما كانت
تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والاستظهار .

خواطر كانت تملأ قلبى فى اليقظة ، وكانت تملؤه فى النوم ، وكانت
تصرفه عن كل شئ إلا عن هذه الفتاة التى سُفك دمها فى ذلك الفضاء
العريض ، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى
الأرض وهيل عليه التراب ؛ وإلا هذا الفتى الذى ما زال يغدو ويروح
فرحاً مرحاً ، معتبلاً مستبشراً ، تبسم له الحياة ويبسم هو للحياة .

ليتنى أدرى أيدكر ضحيته تلك أم قد نسيها . وليتنى أدرى أيدكرها

إن ذكرها في شيء من الرفق بها والعطف عليها والحنين إليها ، أم يذكرها
 إن ذكرها في إعراض الزاهد وانصراف المزدري ! وأين تكون هذه الفتاة
 من نفسه ، وما أكثر الفتيات في نفسه ! لقد كان بالقياس إليها كل
 شيء ، ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها
 كثيرات . لم تذق لذة الحياة إلا بين ذراعيه ، وما أكثر المواطن التي ذاق
 هو فيها لذات الحياة ! وما أكثرها ما ذاق من ألوان اللذات وما بلا من
 صنوف النعيم ! وليتني أعرف كيف يلقي ذكرها إن ذكرت له : أيسم
 لصورتها أم يلقاها بالعبوس ! بل ليتني أعرف كيف يلقي النبأ البشع المروع
 إن ألقى إليه : أيحزنه أن يعلم أنها ذاقت الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها
 إليه ، أم يقع هذا النبأ من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسفاً
 ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً !

وكذلك امتلأت نفسي بهذا المهندس الشاب ، حتى لقد كنت
 أتمسّ الفرار منه فلا أظفر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء ، وحتى
 لقد أنكرت نفسي وأنكرت مَنْ كان حولى من الناس والأشياء ، وأنكرني
 من كان حولى حين طال عليهم ما كنت مغرقة فيه من الوجوم والذهول ،
 إلا خديجة فإنها لم تنكرني ولم أنكرها ، وإنما مضت فيما كانت فيه رفيقة
 بي عطوفاً علىّ ، تعزيني وتسليني وتفتن في ذلك ما وسعها الافتنان . وأنا
 أعرف لها هذا فأحمده وأقدره وأردّ عليها بعض ما كانت تسدى إلىّ من
 جميل ، فأنصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر ، ويفرغ قلبي لما
 أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى

ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هي منى ذلك فتصرف عني
بعض الشيء وتتركني لما أنا فيه ، كأنها تقدر أنى أجد في هذا الوجوم
والذهول لذة وراحة واطمئناناً .

وما تزال هذه الحواطر تلح عليّ وتستأثر بي حتى تستحيل إلى شيء من
الرغبة القوية الملحة في أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا
ألمس أخباره وأتبع أسراه وأتلقط ما يُلقى عنه من حديث . ولم تكن
داره بعيدة من دارنا ، وكأن الظروف قد ائتمرت بي فهيات لي أن أرى
ذهابه ومجيئه من نافذتي حين يغدو من داره أو يروح إليها ، من هذه
النافذة التي طالما كنت أبادل أختي منها الإشارة وأسارقها منها بعض
الحديث . من هذه النافذة التي لم أذكرها ولم أدن منها حين عدت إلى
الدار ، وإنما مكثت أياماً وأسابيع أجهلها جهلاً وأهلها إهمالاً . ثم خطرت
لي فجأة وفُرض عليّ مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنو منها وجلّة وأفتحها جزعة
محزونة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة « هنادي » ذاهبة جائية ،
متغنية بما كانت تتغني به من أغاني الريف ثم أغاني المدينة . وإني لأخذ
موقفي من النافذة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو
قلب ينفطر ، ودموع تنهمر ، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تعبر
إلى ما بيني وبينها من طريق ، وإنما تأتي شاحبة حزينة من قلبي هذا
الأسف الحزين . وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره ، وأدنو
منها كلما أتيح لي الدنو في النهار حيناً وفي الليل أحياناً . آلفها وتألفني ،
حتى أصبح وقوفي منها وجلوسي إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دخلت

الحجرة وأغلقت بابها من دوني . والأيام تمضي وتتبعها الليالي ، وإذا أنا أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهمر الدموع ، ولا تتمثل لي صورة أختي شاحبة كئيبة ، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما كنت أعرفها تذهب وتجيء . صوت أختي ينتشر في الفضاء فيملؤه فرحاً ومرحاً وبهجة وسروراً ، متغنية بهذه الأغنية التي طالما كانت ترددها بصوتها الرخيم الممتلئ العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى : ٣

آه يا نانا يانا من غرامه يا نانا وإن كنت أحبه ما على ملامه
وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً ، إن كان الناس يفهمون منها شيئاً ! فهي شائعة ذائعة في المدينة وفيما حولها من القرى تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة ، بل من كل صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه . أما الآن فإلى أتمثل أختي كئيبة حزينة يائسة ، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى ، وهو ينتشر في الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعة وأسى ، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر النار لا تمس قلباً إلا أحرقتة إحراقاً ، ولا تبلغ نفساً إلا فرققتها تفريقاً ! ؟
مالي أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن أعلم ، وأحس منها ما لم أكن أحس ، وأستكشف فيها من المعاني والمرامى والأغراض ما لم يكن يحظر لي من قبل على بال ؟
إن هذه الآهة التي يرسلها الصدى النحيف ممتدة ضئيلة لا تكاد

تثبت ولا تكاد تنتهى ، لستُشِيرُ في نفسى عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن
 لى بها عهد . وإن هذا النداء لَيَصُورُ لنفسى الأئين كما يَصُورُ لنفسى
 الاستغاثه ، وكما يَصُورُ لنفسى اليأس من البر حين يتكرر . وإن هذا
 الاعتذار لَيَصُورُ لنفسى الهيام فى غير احتفال بالعاقبة ، ولا ندم على
 ما كان ، ولا تقدير لما هو كائن . وإنه لَيَصُورُ لنفسى جرم هذا الحال
 الأثيم الذى سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يرى
 هذه المحبة الهائمة من اللوم ، ولم يُعَفِّها من الإثم ، ولم يصرف عنها العقاب ؛
 لأنه جامد القلب جافى الطبع ، خشن النفس غليظ المزاج ، لم يذق لذة
 الحب ولا ألمه ، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم ، وما يكون فوق
 الإثم ، وما يكون فوق العقاب .

نعم ! وإنى لأسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليائس
 الحزين ، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع جماله حتى أصبح فتنة
 لا تُتَّقَى وسحراً لا يقاوم ، وقد رقّ حديثه حتى أصبح شركاً يصيد القلوب
 وحبالةً تختلس النفوس ، وقد لطفت حركاته حتى لم يبق للامتناع عليها
 سبيل . وإنى لأنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمأجى صوراً ثلاثاً : صورة هذا
 الفتى الجميل الرائع يغرى بالإثم ويدفع إليه ، وصورة هذا الشيطان الآثم
 المرید يأخذ بالإثم ويعاقب عليه ، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها
 الإغراء المضنى والعقاب المبنى . ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسى
 أين أنا منها ؟

أما خالى فإنى أبغضه بغضاً لا حدّ له ، ولو ظفرت به لمزقته تمزيقاً .

وأما أختي فإنى أرثى لها رثاء لا حدّ له ، ولو استطعت لرددت إليها الحياة .
وأما هذا المهندس الشاب فما أدري أين يكون مكانى منه : أهو مكان
المبغضة العدو أم هو مكان المحبة الهائمة ! إنه النار المضطربة ، وإني الفراشة
التي تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنها محرقة مهلكة . . . لأعلمن
من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت ، وليكونن لى منه مكان لم
لم أكن أقدره . لأطفئن هذه النار أو لأحترقن بلهبها المضطرم !

ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتى موصولة بحياة هذا الشاب ،
وبأن مقامى فى بيت المأمور موقوت ، وبأن انتقالى منه إلى بيت هذا
الشاب محتوم إن لم يتمّ اليوم فسيتمّ غداً .

ولزمت النافذة أقرب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل ، كأنما وُكلت
بحراستها أو تتبع ما يجرى فيها . وما هى إلا أن أعرف مواعيد غدوّ القى
ورواحه ، وخروجه من داره للسمر إذا أقبل الليل ، ورجوعه للنوم إذا
انقضى من الليل أكثر من ثلثيه ، وإذا أنا قائمة إلى النافذة فى هذه
المواعيد أراه حين يخرج ، وأراه حين يدخل ، ولا تطمئن نفسى لأمر من
الأمر أو عمل من الأعمال إلا إذا رأيته غادياً أول النهار ورائحاً بعد الظهر .
فإن حيل بينى وبين ذلك لطارئ من قبيله أو من قبلى فهى الحياة
المضطربة ، والنفس المفاقة ، والفكر المشرد ، والقلب الذى لا يهدأ ولا يستقر .

ثم يشتد الأمر بي وتلح الرغبة في هذه المراقبة علىّ ، وإذا أنا أتلمس الأيام التي لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقى فيها أمام النافذة أتربّب ما أرجح أنه لن يكون ، ولكنني أتربّبه على كل حال لأني لا أريد أن يفوتني مخرجه من الدار ، كأنما اتصلت به حياتي اتصالاً ، وُمدت الأسباب المثينة بين هذه الدار وبين قلبي ونفسي وعيني ، فهي لا تبرح خاطري مهما تكن الظروف ، وهي تجذبني إلى النافذة جذباً . وأنا أحس مع ذلك أن هذا ليس إلا أول الشر ، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتي من غير شك لا تجذبني الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب خارجاً منها أو عائداً إليها ، بل تجذبني الدار إلى نفسها لألج بابها وأعرف أصحابها ، وأتحدث إلى من فيها . ولو أني أرسلت نفسي على سجيّتها وخليت بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا النوم ، ولكنني دافعت نفسي عن هذه الدار دفاعاً شديداً ، وجادلت نفسي في الاتصال بها جدالاً طويلاً ، وظفرت من هذا الجدال وذلك الدفاع بتأخير اليوم المحتوم أسابيع بل أشهراً لست أدري أكانت طوالاً أم قصاراً ، ولكنني أعلم أن احتمالها كان ثقيلاً ، وأنني كنت لا أستقبل النهار حتى أستيقن أن الهزيمة ستم فيه ، ولا أستقبل الليل حتى أثق بأنه لن يتقدم حتى يكون التسليم والإذعان . وأمضى مع ذلك في جهاد نفسي ومدافعتها . حتى استقر كل شيء وغلقت الأبواب ، وانقطعت سبيل إلى الدار ، اضطرت إلى أن آوى إلى مضجعي ، وسجلت للنفس يوماً من أيام النصر وأمداً من آمد الفوز ، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد .

وإني لأرى نفسي ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضى وأخذت
 طلائع الليل الشاحبة تغزو الأرض ، وإني لأراني خارجةً كالمنسلّة من دار
 المأمور ، ساعيةً كالحاربة التي تحرض على الاستخفاء ، أدور حول الدار
 مجاورةً أسوار الحديقة حتى لأكاد أمسحها مسحاً ، ثم منعطفة بعد
 قليل ، ثم منطلقةً كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق . وألجُ
 حديقة المهندس ، ثم أسعى هادئةً مضطربةً معاً نحو البستاني كأنما
 أريد أن أسأله عن شيء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ،
 وإنما وقفت أمامه ذاهلةً غافلةً بلهاء يملكني الخوف ويغمرني الحياء .
 أريد أن أمضي أمامي حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة « هنادى » فأقضي
 فيها لحظة أو لحظات ، ولكني لا أستطيع أن أتقدم ، والبستاني يسألني
 من أنا ومن أين أقبلتُ وماذا أريد ؟ فإذا ألحّ عليّ في السؤال وأحسست
 أن صمتي يطول وأن الرجل سينتهي إلى الضيق بي وبما أعرض عليه من
 غفلة وبله وذهول ، وليتُ مدبرة ، وانصرفت نافرة لا ألوى على شيء ،
 كأنني أخشى أن يتبعني تابع أو يتعقبني متعقب . وما أزال أشتدّ في العدو
 حتى أبلغ دارنا فأنسلّ إليها لم يشعر بخروجه منها ولا بعودتي إليها أحد .
 ثم أمضي متجاهلةً متغافلةً حتى أبلغ غرفتي وأخذ موقفي من النافذة وقد
 سبغت على نفسي بعض الهزيمة وإن لم أنته بها إلى الغاية .

على أني ألفت الطريق بين هاتين الدارين ، وألفت البستاني والاختلاف
 إليه ، والأخذ معه في أطراف من الحديث ، وتبادل الإشارات معه من
 النافذة ومسارقه بعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندي واضحاً معروفاً : أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جيدّه وهزله ما يمكن للمثلى أن يعرفه حين يتصل بخدمه والمقربين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم ؛ فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتفى ببستانيه ، وإنما هو في حاجة إلى خادم تُصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار . وقد علمت أن أختي لم تكد تفارقه حتى تعجّل البحث عنم يخلفها ، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوداعة ذات الوجه المشرق والجسم البضّ والعقل الضيق القصير . اهتدى إلى « سكينه » هذه التي أقامت عنده خليفهً لأختي ، والتي كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء ، ولا أجد في الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو . ولكنني مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتدّ الصلة بيني وبينها وتزول الكلفة . ولم يكن في هذا مشقة ولا عسر ، فما أسرع ما اتصل الحديث ! وما أسرع ما اتبيننا به إلى الدخائل والأسرار ! وما أسرع ما أحسست في نفسي عداوةً آثمةً تشتدّ كل يوم وتنمو حتى تملأ قلبي وتملك عليّ كل أمرى وتكاد تخرجني عن طوري وتدفعني إلى ما لاخير فيه . فقد فهمت - وليتني لم أفهم - أن سكينه لم تخلف هنادى على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب ، وإنما خلقتها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل خلقتها

على هواه ومجونه وعلى إثمه وغوايته ، وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والجنون ، ومن الإثم والغواية ! إنما هو صائد يحتبل الفتيات احتبالا ويختلبهن اختلاباً ، يصرفهن عن الحادثة وينحرف بهن عن القصد ، حتى إذا بلغ منهن ما يزهدّه فيهن خلى بينهن وبين ما ينتظرهن من الموت أو من حياة هى شر من الموت .

وإذن فقد خان هنادى ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم يكد يفارقها حتى أنصرف عنها وزهد فيها ، والتمس لذته وهواه حيث استطاع ، لم يحفل بما قدّم من سوء ، ولم يحفل بما قدمت إليه من تضحية ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب يُنْفَقُ فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتُسَلَّى به الغربة فى مدن الأقاليم .

هو خائن إذن ، وهو يضيف إثم الخيانة إلى إثم الغواية ، وهو خليق أن يلقى جزاء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء ، وهو لاقى حظه من هذا الجزاء فى يوم من الأيام ، ولاقيه من يد آمنة هذه التى شهدت الموت مرتين : شهدته حين عُدِيَّ على أختها من يد ذلك الحال الأثيم فى ذلك الفضاء العريض ، وشهدته حين عُدِيَّ على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوى وفى هذه الدار الصغيرة الأنيقة التى يقوم عليها البستانى وتضطرب فيها سكينه كما كانت تضطرب فيها هنادى .

أغيرةٌ هذه التى تضطرم فى قلبى اضطراماً وتحجب إلى التفكير فى الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحجب إلى التفكير فى الخناجر التى تمزق الصدور وفى السم الذى يمزق الأحشاء؟ أغيرةٌ هذه التى يغلى لها الدم فى

١١

عروقي ويصعد لها اللهب في وجهي وتقذح لها عيناى بشيء كأنه الشرر ،
يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يتساءلوا ما خطبي وإلى
أى حال سينتهى بي ما أنا فيه من الدهول ! ؟

أغيرةً هذه التي ذادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غضباً ثائراً
متصلاً لا يهدأ ولا ينقضي ؟ ولمن أغار أو على من أغار ؟ أغائرةً أنا لهذه
الأخت البائسة التي ذاقت الموت في سبيل هذا الفتى دون أن يكون
لتضحيتها أهلاً ؟ أغائرةً أنا لهذه الرغبة التي كانت تملأ نفسي وتملك قلبي
وتدفعني دفعاً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتي
لم تكذب تبلغ غايتها حتى انتهت إلى يأس مهلك لا مخرج منه ولا آخر له ؟
أغائرةً أنا لهذا التفكير الطويل فيمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة
وعلى من هذه الغيرة ، أو لإلام تريد أن تنتهى بي هذه الغيرة ؟

لا أدري ! ولكني أعلم أنها قد جعلت مقامى في دار المأمور عسيراً
وعشرتي لخديجة شاقة ! فقد توحشت أو كدت أتوحش ، وأصبحت نافرة
من كل شيء حتى من خديجة التي لم أكن أظن أنني سأعرض عنها في يوم
من الأيام . وقد أخذت أحس أن مقامى قد أخذ يثقل ، وأن عشرتي
قد أخذت تشق على من حولي ، وأن خديجة قد أخذت تجزيني جفاء
بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك الله يا أمانة ! لإلام تدفعك هذه النفس المضطربة التي لا تهدأ ،
وهذه العواطف الثائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف
ما يريد ؟ !

١٨٩
٥٥٠

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار أحسه
ولا أتبينه ، وأشعر به ولا أحققه ، ألحه في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت
حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبهج وحزن مكتئب ،
وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر
مما تعودت أن تطول . ولألحه في هذا الابتسام الذى يهديه المأمور سخيّاً
كريماً إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلطفاً
لمن لم يكن يحفل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقبها على "أنا حين يلقاني ،
وفيما تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن
تأخذ معهم بأطراف الحديث .

ألحه في هذا كله ، ولكنى أجد فيه غموضاً يثير ميل إلى الاستطلاع ،
ويكاد يسلبني بعض الشيء عن المهندس الشاب وعمما يقع في داره من خيانة
ولثم وعمما يثير في نفسى من غضب وغيرة . وأهمل أن أسأل خديجة عن هذا
الذى ألحه ولا أستبينه ، ولكنى أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً ،
فأعرض عما هممت به وأكتفى بالملاحظة والانتظار . على أن الانتظار لم
يطل ، فما تنقضى أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب
تستتبع حركة في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث بسرعة ، وإذا هى تملكنى
وتغمرنى وتستأثر بى وتنسينى كل شيء وتذكرنى بكل شيء في وقت واحد ،

وتخرجني من هذا السكون اليأس الذي لزمته إلى نشاط يائس دُفعت إليه دفعاً .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثاثه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب ، ويؤتي إليه أثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تظهر عليه الجدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم ، كأنما تهيأ الدار لاستقبال بعض الزائرين ، فهي تعد لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث . والبستاني مسرف في الحركة مندفع في النشاط ، أراه هنا وأراه هناك ، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه في النقل والتنظيف والترتيب . وسكينة تعمل معهم لا راضية ولا ساخطة ، لا مبهجة ولا مبتسمة ، وإنما هي تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرضا ولا السخط ، ولا تحس الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة في بيت المهندس قد أثارت حركة فاترة متقطعة في بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه وسائد تعار ، وهذه آنية تجمع ثم تحمل ، وهذه ربة البيت تكلفني راضية باشمة أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب ، وأن أعنى بأن تهيأ الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا نقص . ثم هذه ربة البيت تستعد في بيتها لتهيئة الطعام الذي سينقل إلى بيت المهندس إذا كان الغد ، ولإعداد الوليمة التي ستقام في دارها إذا كان اليوم الذي يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم في العمل والحديث حتى أعلم - وليتني لم أعلم - ، وأفهمهم - وليتني لم أفهمهم - أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإنما هي زيارة تتم لأمر يراد ، فستخطبُ بنت المأمور للمهندس الشاب ، وستشهد المدينة أفرحاً لم تشهدها منذ عهد بعيد ، وسيسمع أهل المدينة من ألوان الغناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل ؛ فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذى يقيم فى عاصمة الإقليم والذى يتعصب له أهل العاصمة وما حولها من القرى وما يجاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذى يقيم فى أقصى الإقليم نحو الشمال والذى ينافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب له نصف الإقليم أو ما يقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ مذكور هذا الذى يقيم فى المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لا تتجاوز المدينة إلا قليلاً . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المغنين ، ولكنهم سيسمعون لمغنى يأتى من القاهرة ، قد يكون عبد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد يكون غيرهما من كبار المغنين . وستأتى العوالم من القاهرة ، وستأتى مغنية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولائم على أحسن طراز وأجمل شكل ، وسيأتى المنظمون لذلك والمشفرون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون فى ذلك ، ويجرون فى تفصيله مع هذا الخيال الرقيق الساذج الذى يحسب أنه يمضى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال فى مكانه لم يتجاوزه أولم يكديتجاوزه إلا قليلاً .

كانوا يفيضون في الحديث عن المغنى والمغنية ، وفي الحديث عن الطهارة الذين سبهيتون الطعام ، وعن الفراشين الذين سينظمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح ، وعن الموسيقى التى ستأتى من القاهرة فتتقضى فى المدينة يومين أو أياماً تُطرب الناس فى الصباح وتطرب الناس فى المساء ، وعن المدعوين الذين سيشهدون الحفل والذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد ، وفيهم البشاوات والبكاوات ، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر .

كانوا يفيضون فى هذا كله ، ويجدون فى الإفاضة فيه لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وإبتهاج . وكنت أنا أستمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعى أقلها وأهل أكثرها ، وأفكر فيما لم يكن بدّ من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختى ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ يخونها وينتهك ما كان يجب لها عنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الخيانة تنظيماً ، ويريد أن يأتياها ويقدم عليها ويمضى فيها جهرة باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ! ولن تكون سكينه هذه الغافلة البلهاء التى لا أعرفها ولا تعرفنى إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه ومجونه وإثمه ، ولكن التى تخلف هنادى على هذا كله ستكون خديجة ! خديجة أحب الناس إلىّ وآثرهم عندى وأحسنهم مكاناً من قلبى ، خديجة التى أجد عندها — وعندها وحدها — العزاء عماً لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألم بى من مكروه ، خديجة التى أستعين بها على

احتمال هذا الخطب الذى أصابنى فى أختى وفى أهلى ، خديجة هذه هى التى ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته كلها ، مكاناً ما ينبغي لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمنه بذلك الدم الزكى الذى أريق فى ذلك الفضاء العريض !

ولم أكن أسأل نفسى كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس خديجة حين يُلقى إليها أنتكره وتضيق به ، أم تحبه وتبهج له ؟ ولم أكن أسأل نفسى كيف تجد خديجة موفى منها حين أحاول أن أصدّ عنها حب هذا الرجل الآثم وأن أردّها عنه ، وأن أبذل فى ذلك من القوة والجهد ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شئ من هذا ، ولكنى كنت ثائرة أشدّ الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ، مصممة أشد التصميم على ألا يكون مهما تمهياً له الظروف ومهما تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسى عن كل هذه الخواطر التى كانت تحيى فى صدرى وتبعث فى هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم : أكانت خواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنتُ وفيّة لأختى بالعهد مشفقة على حقها أن يضع ، حريصة على أن أحتفظ لها بهذا العاشق الخائن رغم أنفه ، مقاومة فى سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة ، أم كنت أتخذ هذه الخواطر حجة وتعلة أخفى بها على نفسى ما لا أحب أن تظهر عليه ، وأستر بها دون قلبى ما لا أجد الشجاعة على أن أواجهه به فى صراحة وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، بل لم أكن أسأل نفسي
 عن شيء ما ، وإنما كنت أفنى قوتي وجهدى وتفكيري في أن أحول
 بين خديجة وبين هذا التدبير الذي يدبر وهذا الكيد الذي يراد . وكثيراً
 ما كان يخطر لي أني أحمي خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر
 منكر ، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يغتالها الذئب ، وأضن بها
 على أن تبذل لهذا المجرم الآثم الذي لا يعرف حقاً ولا يرعى حرمة ولا
 يرجو وقاراً لخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قيامي دون خديجة
 وحمايتها من هذا الخطر الذي يوشك أن يلم بها فرض يأخذني به الوفاء
 لما بيننا من مودة ، والرعاية لما لها عندي من جميل . وكثيراً ما كان هذا
 كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض ويتمثل أمام نفسي مجتمعاً مؤلفاً
 قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلافة ، فإذا هو أمامي
 مرآة نقية صافية ، أنظر فيها فترد إلى صورة نفس كريمة عظيمة قد
 ارتفعت عن كل نقيصة ، وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية في
 سبيل الأخت التي اغتالها الخطر ، والصديق التي يوشك الخطر أن
 يغتالها .

ولو أني حولت وجهي عن هذه المرأة بعض الشيء في ذلك الوقت ،
 ولو أني نظرت في نفسي ولم أنظر أمامها ولا من حولها ، ولو أني تعمقت
 قلبي وتبينت قرارة ضميري ، لرأيت شراً يا له من شر ، ولشهدت هولاً
 يا له من هول ، ولعرفت أني لم أكن أني لأختي ولا لصديقي ، وإنما
 كنت أوتر نفسي بما أراه خيراً وشرّاً ، وأقف هذه النار المضطربة المتأججة

على نفسي وأحبيها من أن يحترق بها أحد غيري !
نعم ! ولكني لم أكن أنظر في نفسي ولا أحاول النظر فيها ، وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذي يدبر ، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذي كان لأختي منذ حين والذي يجب أن يكون لي بعد حين ، كأتما ورثته عنها بعد الموت !
والغريب أن هذه الخواطر المضطربة كلها لم تُفسد من أمري شيئاً ، ولم تغير من شكلي ولا من نظام حياتي الذي ألفه أهل الدار قليلاً ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسي ، وأذهب وأجيء ، وأعمل وأكسل ، وأنشط وأفتر ، كما رأي أهل الدار من قبل ، بل خيراً مما تعودوا أن يروني في الأيام الأخيرة . فقد ذهب عني الذهول ، وفارقت الوجوم ، واستقرت عيناى وهدأتا واستقامتا ، فليستا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا تنظران هذه النظرات التي كانت تُخيف مني وتثير في النفوس من حولي شكاً وريباً وإشفاقاً . عدتُ إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لساني بالحديث ، بل تردد الابتسام على شفتي ، وأخذ الإشراق يترقق في وجهي من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد في أن هذا الفرح الطارئ قد شفاني مما كنت أجد ، وردتُ إلى ما كان قد فارقتني من اعتدال المزاج .
ثم نُصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولي في مظاهر ما يجدون من فرح وبهجة ، وأنفرد وحدي بلوعة لا تنقضي وحزن لا تخمد ناره .

يا لَمَقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا أحد لها . يا لمكر
النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لَمقدرة
النساء على الكيد وبراعتهم في التلوين وهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن
لأفدح الخطوب !

لقد أكبرت نفسى ، بل أكبرت المرأة فى نفسى حين رأيتنى
أضطرب فى هذا التمثيل وكأنى أضطرب فى الحياة الواقعة لا يأخذنى أحد
ولا آخذ نفسى بتصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأنافق
وأصطنع الرياء وأخفى ما أخفى وأظهر ما أظهر ، فى سهولة ويسر ، كما
أتنفس وكما أفتح عيني وأغمضها ، وكما آتى ما تدفعنى الغريزة إلى أن
آتى به من الحركات ! ومع ذلك فبعض ما عرض لى من الخطب وبعض
ما ألم بى من الهم كان خليقاً أن يحول بينى وبين الحياة فضلاً عن الحياة
الهادئة المطمئنة ، فضلاً عن هذه الحياة المضاعفة التى يملؤها الكذب
ويجرى فيها الرياء كما يجرى الماء فى الغصن الرطب .

وانتهى النبأ إلى خديجة ، كما تنهى هذه الأنباء إلى الفتيات من بنات
الطبقات الوسطى ، ظاهراً خفياً ، وواضحاً غامضاً ، يُلقى إليها ويُستتر
عنها ، تُنبأ به وترد عنه ، فتبتهج له نفسها وتستحي مع ذلك من أن
تحدث فيه ، ويمتلئ له قلبها غبطة وسروراً ، ويفرض عليها الأدب

مع ذلك أن تتكلف الكتابة والحزن كلما ذُكر لها ، وأن تعرض بوجهها إعراضاً كلما هم أحد أن يشير إليه لها من قريب أو بعيد ، وأن تفرّ منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جليلاً . على أن صديقي وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار ، قد أثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء من هذه الصراحة الساذجة الحلوة ! فلم تُخف عليّ ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة ، وما كان يغشى نفسها من قلق وإشفاق . وما أكثر ما تحدثت إليّ وما أكثر ما تحدثت إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التي لا تحصى ولا تستقصى ! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعمّا نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته ووثوقه ! وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومضيئنا مع الخيال ! وما أكثر ما فصلنا الأمور تفصيلاً ، وأطلنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر ، فتحدثنا عن الثياب التي ستشترى ، وعن الحلوى وعن الأثاث ، وأقمنا القصور وأنقنا إقامتها إتقاناً !

وأنا في هذا كله أجاري صديقي مجارة يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول حتى لم تشك لحظة في أني أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس والقراءة والاستظهار . بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد غد حين يتم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها وتصبح ربة بيت . ونتحدث في الدرس الذي لا بد من أن نمضي فيه ، وفي القراءة التي لا نستطيع أن

ننصرف عنها ؛ ونرتب أمرنا على أنى سأنقل مع خديجة إلى حيث تكون ،
وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف . وما الذى يمنع من ذلك
وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ،
وما استطاعت في يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن
يكلّفوني بما لا يتصل بها من الأمر ! كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ،
ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربّة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء
النهار حين كان منّ حولنا يضطربون فيما يضطرب فيه أهل الدار حين
تهيأ لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل
شئ من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذى تمتاز به ليالى الريف !
ولكن نفسى في هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما
كانت نائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر في
هذا الشخص الغريب الذى يحتوى نفسين متناقضين أشد التناقض :
نفساً تبهج وأخرى تبتئس ، نفساً تعد وأخرى توعده ، نفساً تمضى في
الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضى في تدبير ما يحزن ويسوء .

وتنقضى الأيام الأولى ، ويكون اللقاء ويكون التزاور ، ويكون
الامتحان لخديجة بالنظر والحديث ، ويدنو كل شئ من غايته ،
ويستحيل الجو إلى الوضوح والجلاء ، وتنفس أهل الدارين في جو كله
سرور وغبطة وأمل ورجاء في غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذى تتكشف الأمور فيه عن

نفسها ، وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت
أخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكنى أجدنى فى
ساعة من ساعات النهار وقد أذنت الشمس أن تنحدر إلى مغربها ،
وانتشر فى الجو هذا الحزن الضئيل اليسير الذى ينتشر فيه مع الأصيل
فيهدئ من نشاط النفوس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويسلقى على
الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجرى فى الأصوات الفرحة نغمة لا تخلو
من كآبة ، أجدنى فى ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ،
حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستأذن ، ثم أغلقت الباب من دونى
لا أستأذن ، ثم وقفت واجمة بين يدي سيدتى لا أقول شيئاً ، وإنما تنحدر
الدموع غزيرة على خدى ، وسيدتى تنظر إلىّ فى غير إنكار وفى غير
لوم ، كأنها قد فهمت عنى ما أردت أن أقول ، وكأنها قد استجابت
لدعائى ، فهى ترفق بى وتؤكد لى أنى لن أفارق خديجة ولن يحول بينى
وبينها حائل ، وأنى سأنتقل معها حين تنتقل ، وسأسافر معها حين
تسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأنى أحسن حظاً منها هى ! فهى
مضطرة إلى أن تفارق ابنتها ، أما أنا فلن أفارق سيدتى وصديقى . . .

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ، ولكنه لا يبلغ منى ولا يؤثر فى
نفسى ، فما لهذا الحديث أقبلت . وما حاجتى إلى أن أسمع من ربة
البيت وقد سمعته ألف مرة ومرة من خديجة ! ومتى استطاعت ربة البيت
أن تفرق بينى وبين ابنتها فى جد أو لعب ! كلا ! لم أقبل لأسمع هذا
الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً ، وإنما أقبلت لأقول شيئاً ، وقد قلته فى

صوت هادئ تبليه هذه الدموع المنحدرة المهمرة. وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة ، وأنى قد دخلت هذه الغرفة فى هدوء ولن أخرج منها إلا فى عنف واضطراب . ولكنى قد أتممت ما أردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش . ثم هممت أن أنصرف خجلة مستخذية ، ولكنها وقفتنى بالإشارة وتركتنى لحظة لا تقول لى شيئاً ولا تلقى إلى لحظة ، ثم قالت فى صوت عادى مترن : وهل أنبأت خديجة من هذا بشىء ؟

قلت وقد أغرقت فى البكاء : كلا يا سيدتى ! وما ينبغى لنفس خديجة الطاهرة البريئة أن يلقى إليها حديث هذا الإثم . ولولا أنى أوثر خديجة وأوثر الأسرة كلها لما أنبأتك بشىء ، ولما أفضيت إليك بسر هذه الأسرة البائسة التى تعيش فى بؤسها المظلم فى أقصى الريف . قالت وقد نهضت إلى متناقلة : لا بأس عليك ! فلن يذاع سر أسرتك . ثم ضمتنى إليها وقبلتنى وهى تقول : لقد أنقذت ابنتى من شر عظيم .

قلت : نعم يا سيدتى ، قد أنقذت خديجة من شر عظيم ، ولكنك ترين معى أن لا مقام لى فى هذه الدار منذ الآن ! فكل شىء يأمرنى

بالتحول عنها . قالت وقد أحسست في صوتها أنها مشغولة البال منصرفه النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث : وما ذاك ؟ قلت مقتصده متعجلة مضمرة أني إنما أتحدث لأعتذر عما سأتى من الأمر : لم أعود يا سيدتى أن أخفى على خديجة شيئاً أو أكتُم من دونها سرّاً ، وما ينبغي بل ما أستطيع أن أبقي معها مستأثرة بعلم ما أعلم طاوية عنها مسعاى عندك . وستعلم خديجة من غير شك أن هذا الأمر الذى بدئ فيه قد أهمل وعدل عنه ، وسيكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك ، ولست آمن نفسى حين أحاول ما يجب علىّ من تسليتها وتعزيتها أن أبوح لها ببعض الحديث . والخير كل الخير في أن أتعجل الرحيل . وما دام الله قد قضى علىّ الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله . قالت : وأين تريدان أن تذهبي ؟ قلت : لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولاً ، فأما إلى أين فشىء سأسئله بعد ذلك . . !

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدةً عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك ، ألحظ من كُتب ما يكون بين هاتين الأسرتين اللتين لم تتصل بينهما الأسباب إلا لتقطع ، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عداوة أو شىء يشبه العداوة . ولم أجد في ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناء ، وإنما تحولت من دار إلى دار ، وقضيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة التى تحدثت عنها في أول هذه القصة ، عند زنوبة تلك التى عرفتها في بيت العمدة وقصصت من حديثها ما قصصت .

أقبلت عليها نحو الظهر ، فألقيتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من

الحب ، وأمامها نسوة يشترين منها : هذه تشتري القمح ، وهذه تشتري الذرة ، وهذه تشتري الفول ، هذه تشتري نقداً ، وهذه تشتري نسيئة ، وزنوبة تحتكم في هذه وتلك صائحة مسرفة في الحركة ، لا يستقر لسانها في فمها ، ولا يستقر وجهها أو لا يستقر ما يختلف عليه من الصور والأشكال ، فهي عابسة حيناً ، وبانمة حيناً ، وهي تفعل بعينها وشفتيها وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه ، وهي تسب هذه جادة وتسب هذه مازحة ، وهي تلمح حيناً وتصرح حيناً آخر ، وهي تمضي في ذلك والنسوة يسمعن لها راضيات عنها معجبات بها ، مشاركات لها في بعض ما تقول وفي بعض ما تأتي من الحركات ، وأفراد من شباب المدينة قد اجتمعوا غير بعيد ينظرون ويسمعون ، ثم يتبادلون فيما بينهم أحاديث فيها الدعابة والرضا ، وفيها اللذة والإعجاب .

فلما رأتني زنوبة لم تنكرني ، ولكنها لم تغل في الترحيب بي ، وإنما نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوتها النحيف : ها أنت ذي تُقبِلين ! لقد بعد العهد بك منذ التقينا في بيت العمدة ، ولكني كنت أنتظرك ، وما شككت في أنك ستأتين إلى هذا البيت وستومين مني هذا المقام . قلت : فهل أنباك الودع بهذا ؟ قالت : وما يدريك ! لعل الودع قد أنبأني من أمرك بما تعلمين وبما لا تعلمين . اصعدى إلى هذه الغرفة من فوقنا فتخفني من حقيبتك واستريحى ، فسأفرغ لك بعد حين ، ولا تتعجلي الطعام إن كنت جائعة فإن وقت الغداء لم يحن بعد ،

وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام ،
فما أرى إلا أنك تأكلين في كل وقت . هذا شأنكن أيتها الفتيات تشغلن
ببطونكن أكثر مما تشغلن بأى شىء آخر . ومن يدرى ! لعلكن
تشغلن . . .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد في السلم إلى الغرفة
التي دلتى عليها ، ولكنها تبتغى مع ذلك بالسخرية والدعابة ، وأخذت
تقول أهربى ، أهربى ، وجدى فى الهرب ، إن أذنك النقيتين البريقتين
لا تستطيعان أن تسمعاً لما ألقى من حديث . إنك تخافين من احمرار الوجه
واضطرابه . لن تخدعنى وإن استطعت أن تخدعى غيرى ؛ فإنك لتحبين
هذا الحديث وتخوضين فيه وفى شرمه مع أترابك من الفتيات ، ولكنكن
تصنعن الحشمة وتتكلفن الحياء . على أنها لم تمض فى هذا اللغو إذ لم
تأنس استماعى لها وانصرافى إليها ففضت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن
دعابة بالوجه واللسان .

وفرغت لى بعد ساعة ، فأقبلت على هادئة باسمة ، تسألنى عن أمى
وأختى وأجيبها على أسئلتها بما أريد ، فتصدق ما تصدق وتكذب ما تكذب
ثم قالت : وأنت الآن تريدن العمل ، فأين تحبين أن تعملى ؟ وكيف
تريدن أن تعيشى ؟ إن لك من جسمك هذا الجميل ، ووجهك هذا
الوضئ ، ومنظرِكَ هذا الذى يسحر الشبان ويخلب عقول الرجال ،
ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى ، وفيها نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ،
وفيها تسلط وسيطرة واستخفاف وعبث بعقول الشباب والشيب . قلت

مغضبة : دعيني من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت
أستعينك على شيء ، وإنما أملت بكُ مُحِيَّة لك قبل أن أترك هذه المدينة
فإني عنها مرتحلة . قالت وقد أدارت عينها وأسبغت على وجهها شكلاً
مضحكاً تملؤه السخرية ويشيع فيه التكذيب والاستهزاء ، وأرسلت من
فمها شهيقاً منكراً أتبعته بشخير منكراً ما أشك في أن الشباب المجتمعين
غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له ، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا ،
فزادها مرحاً ونشاطاً ، ولأنني خزيّاً واستحياء ، قالت : لا ترأعي لا ترأعي ،
فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أُكرهك
على ما لا تحبين ، ولكني أعرض عليك ما عندي . فأنت تكرهين هذه
البضاعة أو تظهرين كرهها الآن ! فعندي غير هذه البضاعة ، ولكن
ثقي يا ابنتي أنك راجعة إلى فطالبة مني ما ترفضين الآن . لست الأولى
ولن تكوني الأخيرة . . . تريدن عملاً كله جيداً كهذا الذي كنت
فيه عند المأمور ، فلم تركت بيت المأمور ؟ ولكن هذا من أسرارك ،
وإن لم يكن للفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالي سر ؛ فقد أحب أن
أعلم من أمرك جليته وخفيه لأوصي بك عن علم . أخرجت سارقة ؟
أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصياح ؟
أم أغضبت سيدك ؟ أم أغضبت سيدتك ؟ أم أغضبت بنت المأمور ؟
أم أغضبتهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟
وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو بيتين كبيت المأمور ؟ وأنت
تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح والليالي الملاح ،

وتترلين عما كان يحق لك أن تطمعي فيه من العطايا والهبات ! فليس من شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف تركت هذا كله ؟ أتركته راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟ تكلمى ! إنى لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار ، ولا خير في التمتع والإبقاء والكتمان ، فما تخفيه اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه قبل أن تغيب الشمس ، ولست بزنوبة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك لم تبلغ العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار الأسر التي تقيم فيها أو تفقد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثنى ! كيف خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المهر من الحديث ، وأمام هذه الأسئلة الملحة وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسعنى إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيبتى فأحملها وأمضى نحو السلم ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيبتى قد خُطفت منى خطفاً ، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتنى بذراعيها المنكرتين ، وأخذت تلحّ علىّ بالضم والتقبيل تهدئنى وتبرضانى ، وأنا لذلك كارهة أشد الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشد السخط ، ولو استجبت لنفسى لصحت مستنجدة طالبة الغوث ؛ فقد أخذت أمقت نفسى وألومها ، وألعن هذه اللحظة التي خطر لى فيها أن آوى إلى دار هذه المرأة ريثما أهين من أمرى بعض الشيء وأدبر لى عملاً أمضى فيه .

ولكن زنوبة ملححة علىّ بالرفق والملاطفة ، وقد خفت صوتها وعذب حديثها ، وأخذت تتحدث إلىّ بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة ، كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوعنى أو يروعنى أو يقلقنى عن هذه الدار التى اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامى أياماً أو أسابيع .

ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل فى حديث هادئ فيه الجهد وفيه الهزل ، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحس من عطفها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت فى هذه الساعات يسيرة قد زال منها التكلف ، وإذا نحن قد تغدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت تتحدث إلى صاحبها فى شىء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن نستحضر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف فى صاحبها من وراء هذه الصورة الظاهرة التى يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور البؤس وتمثالا مستتراً من تماثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترى لصاحبها أو تتخذ الرثاء مظهرًا من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن نشترك فى البكاء ونتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين فى الضحك ونستبق إليه . ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيننا قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذى يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن احتفظ بشىء من الاحتياط . . فلم أظهر زنوبة على سرى ، ولكنى أنبأتها بأن أختى قد قضت فى الغرب ، وزعمت لها أنى إنما خرجت من بيت المأمور فى أثر مغاضبة كانت بينى وبين الخدم ، ثم لم أظفر بما

كنت أراى أهلا له من الإنصاف . وقد سمعت منى ما أقول وهى إلى
التكذيب أقرب منها إلى التصديق ، ولكنها تجنبت الجدل والإلحاح فيه ،
وأظهرت الرثاء لى والعطف على " ، ووعدتنى بأنها ستجد لى عملا شريفاً
مريحاً إذا كان الغد ، وألحت على فى أن أقضى الليل معها وقد فعلت ،
وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل فى مثل ما أنفقنا فيه النهار . فلما
أصبحنا غابت عنى ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت إلى " متلهة مشرقة
الوجه وهى تقول : لقد وجدت عملا ما أشك فى أنه سيرضيك . ستعملين
حيث كانت تعمل أملك قبل أن ترحلن عن المدينة فى بيت فلان ،
أتذكرين اسمه ؟ أتعرفينه ؟ إنه رجل من أصحاب الرثاء واليسر ، وقد
لا تجدين فى داره مثل ما كنت تجدين فى دار المأمور من الترف ،
ولكنك ستجدين عنده سعةً ويسراً ، ودماثةً فى الخلق ، وتبسطةً فى
المعاملة ؛ فزوجه كريمة النفس ، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى
المدارس ولا استقبال المعلمين . فهذا الرجل أمير يرضن بيناته على هذا
الفساد ، ويرسل أبناءه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيما
بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضى والمهندس . وإذا أقبل الصيف وعاد
هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً ومرحاً ، وأصبحت أيام
الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرغد والسعة ولين العيش .
وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ
أعوام وأعوام ، وقد ربيت أبناءها وبناتها ، وقد تنبت منهم واحداً
بعينه هو الآن شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف

لى هذا الحق ويحبى ويكرمنى ويؤثرنى بالخير والمعروف ، قلت :
وكيف تَسَبَّيْتَهُ ؟

قالت وهى تضحك : أتجهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان
وليداً فأدخلته من بين ثوبى وبينى ، أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت
ذيلى ، فأصبحت كأنى والدته ، وأصبح لى عليه حق الأمهات وله على
حق الأبناء . ستعملين فى هذا البيت وسترضين ، وسأراك كل يوم إذا
أصبحت وسأراك إذا أمسيت ؛ فليس بين هذا البيت وبيننا إلا خطوات ،
وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عنك إلى ربة البيت
فعرفتك وعرفت أملك وأختك وقبلتك راضية مسرورة ، فهلم بنا فقد
تركناها على أن أعود بك إليها بعد لحظات . ولست أخفى عليك أنها كرهت
بعض الشيء استخدامك بعد أن خرجت من بيت المأمور لما بين الأستين
من مودة ، ولكنها لم تطب نفساً عن تركك عرضةً لما يتعرض له
الفتيات من الشر بعد أن عرفت أملك وحمدت عشرتها . فهلم بنا فقد
تتاح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيننا الحديث .

ونهضت معها وليس فى نفسى ريب فى أنها قد نصحت لى وأخلصت
فى النصيح والود ، وفى نفسى بعض الأمل فى أنها ستعينى يوماً ما على
تحقيق ما أريد .

وأقبلتُ معها على بيت من بيوت الريف هذه التي يظهر فيها الثراء ،
ويحسّ أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف
الحضارة إلا بأيسره وأهونه ، محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية
التي لا دقة فيها ولا رقة ولا افتتان في إرضاء الذوق ، والتي تكره النظام
وتنفر منه ، وترى في الترتيب والتنسيق تكلفاً وجهداً لا خير فيهما ولا
حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التي لا يكاد يدخلها الداخل حتى
يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ؛ فالمتاع كثير ولكنه
مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيا ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر
فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أو كالملقى بين حجرات الاستقبال للسيدات وحجرات
الاستقبال للسادات ، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات الطعام ،
إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسي ، يأكل أهل
الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا ، إلا أن يطرقهم طارق أو يلهم بهم ضيف
فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الضيف
حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

في البيت مقاعد وكراسي ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على
هذه الحصر والأبسطة قد ألقىت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق أو

أقبل الضيف عرفت الكراسى والمقاعد أن لها في البيت منفعة وعملا .
والفرق ملغى أو كالملقى بين من في الدار من الناس وما في الدار من
الحيوان على اختلافه ؛ فالدجاج مطلق يمشى حيث يشاء ويستقر هنا
ثم يستقر هناك حاملا معه أقداره وآثاره ، لا يحصى منه إلا حجرة أو
حجرتان ولا تحميان إلا في مشقة وتكلف للجهد . وقد لا يكره أهل
الدار إذ اشتد القيظ أن ينفقوا مساءهم تحت السماء قريبا من البقرة
أو الجاموسة أو ما إليهما ، يطلبون النسيم حيث يجدونه ، لا يتكلفون
في ذلك ولا يتصنعون ، ولا يجدون في مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى .
هي الحياة السهلة اليسيرة الغنية همّت أن تتحضر وأن تترف ، فأخذت
من الحضارة والترف بحظ ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكثفت بما أخذت ،
ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

فلم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادماتها يعملن وتعمل
معهن ، يتحدثن وتشاركهن في الحديث ، حتى أحسست أني
سأجد في هذه الدار راحة وتعباً ، وسألقى فيها نعيماً وبؤساً . وقد صدق
حسي ، فنعمت في هذه الدار وشقيتُ : نعمت بهذه السداجة التي
ردتني إلى شيء يشبه حياقي في أقصى الريف ، وخلطتني بأهل الدار
كأنني واحدة منهم ، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت
تلغيه . ولكن أي حياة يموت فيها العقل أو يأخذه شيء كالموت !
لم آسف على ما فقدت من الترف ، ولعلني لم آسف على ما فقدت من
صحبة خديجة ؛ فقد استيأست من صحبتها واتخذتها - سواء أردت

أم لم أرد - لنفسى خَصْماً ، حاربتها وإن زعمت أنى كنت أدافع عنها ، وظلمتها وإن زعمت أنى أنقذتها ، وانتصرت عليها وإن زعمت أنى لم أسف لما فاتنى من صحبتها فلم يكن من ذلك بدّ ولكن أى أسف وأى حزن وأى لوعة وحسرة ، وأى ندم يذيب القلب ويملأ النفس كآبة ويأساً هذا الذى كنت أجده إذا أصبحت وأمسيّت وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب !! .

أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التى كنت أنفق معها أكثر النهار وشطراً من الليل قارئة أو متحدثة عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة ؟ لقد تركت هذا كله فى بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد ، إلا رب البيت ؛ فإنه يقرأ إذا أصبح ، ويقرأ إذا أمسى ، وأنا أستمعه فى الصباح والمساء ، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ . وما يعنى مما يقرأ ! إنما هى أوراده وأدعيته ، ودلائل الخيرات . وأين أنا من هذا ، وأين هذا منى !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً ، وما كان لى أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب لخديجة . ولقد سألت نفسى ألف مرة ومرة : أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب ؟ فليس فى هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التى يعرضها الطوافون فى أيام السوق أو فى يوم الخميس من كل أسبوع ، يعرضونها

فى السوق ويمرون بها على الدور ، وليس لى فيها أرب ولا منفعة ، إنما هى قصص لا تعجبنى ولا تروقى ، وسحر لا أحسنه ، وصلوات دينية لا أعرف منها قليلا ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق ، هذه التى تأتى من القاهرة والتى كنت أجد اللذة والمتاع حين أخذها فى يدى أو حين أنظر إليها ؟ أحيلَ بينى وبينها آخر الدهر ؟ أقضى على أن أرد كما كنت فلاحه من بنات الريف تنفق نهارها فى هذا العمل الآلى الذى لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النبات والحيوان ؟ كلا ... !

هؤلاء فتیان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة ، وقد رأيتهم يُفرغون حقائبهم . فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام المختلفة المتباينة ، منها الضخم ومنها النحيف ، منها متقن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالا ، منها ما جلد فى عناية وما ترك على حاله التى خرج بها من المطبعة ! ولكن أين منى هذه الكتب ؟ وكيف السبيل إلى النظر فيها ؟ بل كيف السبيل إلى الوصول إليها ؟ هنا حدثنى نفسى بما لم تحدثنى به قط ، فأنكرت حديثها بعض الشيء ، ولكنى لم ألبث أن عرفته وقبلته واطمأنتت إليه ثم صممت عليه تصميما . وأى بأس فى أن أختلس الكتاب اختلاسا فأنظر فيه وقتاً طويلا أو قصيراً ، ثم أردّه إلى مكانه لم يمسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقه هذه ؟ أأثم هذا الذى أنا مقدمة عليه إن وجدت إلى الإقدام عليه سيلا ؟ والله يشهد

ما سرقت ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس إلا هذه المرة . والله يشهد ما ملت نفسي على ذلك ولا أشفقت عليها من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسي منها حظاً ، وفيها خوف وإشفاق ، وفيها بين ذلك لذات لن أنساها . فكم خدعت أهل الدار ، وكم تغفلتهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيته بيني وبين ثوبي ، ثم انحزت به إلى حيث اتخذت لنفسي مأمناً لا أخشى أن يُعثر عليّ فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طوالاً أو قصاراً تغريني به أو تصرفني عنه ، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف ول هذه القراءة لذة غيرت حياتي تغييراً وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسي وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس وصورة خديجة وصورة هذا الشاب .

نعم ! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفني عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح الماء على سادتي في ليلة من هذه الليالي : سمعت حديثاً عن المأمور اضطربت له نفسي اضطراباً ، ولولا أنني أنفقت جهداً عنيفاً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آنية ؛ فقد نقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر ، وكان هو الذي طلب هذا الثقل وسعى فيه وتوسل إليه بفلان وفلان . والناس يهيمسون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابنته من جوار المهندس الذي كان قد خطبها ثم

قطعت الخطبة . والناس يختلفون ، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذى قطع الخطبة لأشياء بدت له ، ومنهم من يزعم أن المأمور هو الذى رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكظمت عواطفى وأكرهت نفسى على التزام الأمن والهدوء ما اضطرت إلى الخدمة ، فلما أتيت إلى العزلة أرسلت نفسى على سجيئتها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محزنة . ولكن الصباح لم يُسفر حتى أسفر معه للنفس أمل ، لا يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفسدت الأمر على خديجة ، ومن أجله خرجت من بيت المأمور ، ومن أجله نفيت نفسى فى هذه الدار . فقد خلا الجولى فى المدينة ، وأصبح من الممكن أن تتصل الأسباب بينى وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بينه وبينى ، فليعلمن بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدرًا أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالثأر ويشفى نفسه بالانتقام ؟ ...

٢٠

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم الارتباك ، تضطرب الحواطر فى نفسى وتختلف وتردحم دون أن أقدر على تنظيمها أو أجدر لى منفذاً منها إلى هذا الخاطر الذى كنت أطلبه

وألح في طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل إلى ذلك ميسرة ؛ فأنا عاملة في هذه الدار لا أجد من أهلها ما يزعجني عنها أو ما يضطرنى إلى فراقها ، وسكينة عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها أو يزهد فيها .

وكنت أجهد نفسى أثناء هذه الأسابيع إجهاداً شديداً متصلاً أتمس مخرجاً لى من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك ، وأريد مع ذلك أن أجنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابهما سبيلاً . وكثيراً ما سمعت سادى يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً في إقليم بعيد ، وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التى نحن فيها ليعيش بين أهله سعيداً موفوراً ، فكان يسعى في أن يبادل موظفاً في المدينة ليأخذ كل منهما مكان صاحبه . وكان التراضى قد تم بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعى وإلحاح ، وكان السعى متصلاً في أن ترضى الحكومة عن هذه المبادلة ، وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويبعد حيناً آخر ، وكان رب البيت وربته يحرضان على تحقيق هذا الأمل أشد الحرص ويكثران الحديث فيه ، وكانا يتصوران ابنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة في أقصى الصعيد ، وكانا يهيئان له في أحاديثهما غرفته وينظمان فيها الأثاث ويذكran ما يجب أن يُشترى من المتاع ، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذى تعلم في المدارس وتعود حياة

الترف والنعيم ، والذي يتكلم الفرنسية ويتألق في اللباس ، ولا يأكل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة ، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء في الأيام العادية ، وعليها تلك الصينية الصفراء التي لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكلفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يُرص الخبز عليها رصاً فيخفي هذه النقوش إخفاء .

نعم ! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار ، وإنما كان يصطنع هذه الأدوات التي يصطنعها المترفون . وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف ألسنتهما معجبين به أشد الإعجاب في قلوبهما . وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفي ، فيسمون صامتين ما أقام أبوهن ، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة ، وأمهم تسمع لهم وتنظر إليهم ، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبةً بهم في أعماق القلب . وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فألهو بها وأطيل التفكير فيها . فهل من سبيل إلى أن تتم بين سكيته وبينى مبادلة كهذه التي يراد أن تتم بين ابن هذه الدار المنفى في أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطي المنفى في أدنى الأرض ؟ !

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة ؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكيته أو التحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكيته ؟ وما الذي يزعجها عن منزلها هذا الذي

تطمئن إليه وتسود فيه لا تكاد تدعن لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة ؟ ما الذى يزعجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التى لا حظ لها من ترف والتى ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكينه حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليل ذلك لسيدها ؟ وكيف يكون تعليل ذلك لسادتي ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . ومهما أجهد ومهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر والإثم لا يدرك إلا بالإثم ، ولن أبلغ هذه الغاية التى أسمو إليها حتى أقترحم فى سبيلها غمرات وأقترف فى سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أكره حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تقصى سكينه عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين تهباً له النفس ! وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ! ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ! لن أجد فى تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رضيت نفسى ما لا بد من أن ترضاه من الشر ، واستباححت ما لم تكن تستبيحه من الإساءة والإيذاء .

فأما سكينه فأمرها ميسور . وإنما هى زيارة للبستاني وإغراء له ببعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت سكينه من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتبس خادماً ، ويومئذ ...

وأما مخرجى أنا من هذه الدار التى أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون . لقد دخلت الدار ولم تكن فى حاجة إلىّ ، وإنما قبلنى أهلها رفقاً بى وعطفاً علىّ وإحساناً إلىّ ورعاية لعهد أمى . فأنا عندهم ضيف ، أستطيع أن أرحل متى شئت ، وأستطيع أن أقيم ما أحببت . على أن ظروف الحياة لم تضطرنى إلى أن أتكلف الاستئذان فى الرحيل والتماس العلل والمعاذير ، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار لإخراجاً وأنبذ منها نبذاً . وإنى لأذكر قصة ذلك الآن فأبسم لها ابتساماً ملؤه الحنان والحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلاً قلبى حباً لهؤلاء الناس وحناناً إلى هذه السداجة التى كانوا يعيشون فيها والتى كانت تصور لهم^١ أمورهم كلها فى صورة الجذ الذى لا يشبهه جد ، والتى لا يتحدث بها الناس فى هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب ، وابتسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرون الذكرى ويحبون الحياة التى لا تكلف فيها ولا رياء .. !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التى أقبلوا بها من القاهرة ، يقرءون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شيء . وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيطئون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويملؤه بهم إعجاباً ولهم حباً . وكان أهل الدار جميعاً ، وزبها أولهم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حباً للعلم وإيثاراً للدرس وجداً فى التحصيل ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول

العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم
لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ،
وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آن لهم أن يقيّلوا بعد الغداء .
ما أشد فتنة العلم لهؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب
ويأخذون منه بأعظم الحظ ، ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا
بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون
المرتبات في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يجدون في هذه الأحاديث لذة ، ويطلقون خيالهم
فيها إطلاقاً . وكانت سيدة الدار تتمثل هذا كله وتتوسل في
تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير ، الذي تعجى به
اللسنة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالندور المختلفة
لهذا الشيخ وذلك الولي .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على
الكتب أكثر النهار وشطراً من الليل ، حتى لقد كان يغيظ أصحابه
ويملاً قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملاً قلبها خوفاً
من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطيب الكريم يجد لذة في
أن يختلس الوقت من حين إلى حين وينتهر الفرصة التي يغيب فيها
أبناؤه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فينسل إلى الغرفة
انسلافاً كأنه اللص ، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي
نُظمت عليها الكتب تنظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار نظرات

ملؤها الإكبار والإجلال ، وقد يمد يده في تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسحها مساً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقراً فيه سطرّاً أو أسطرّاً يفهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها ، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغي للعلم من الغرابة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف آباؤهم ولا يفهمون ولا يسمعون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبناؤه ببعض ما يقرأون ويعطونه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقياً دائماً لا يكاد يلح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفوراً وازوراراً ، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه ببخل العلماء وضمنهم بالعلم وإيثارهم أنفسهم بلداته وثمراته ، يتحدث بذلك متألماً محزوناً أو ثائراً مغضباً ، فتعزبه زوجه وتهدهه وترعم له صادقة أو متكلفة أن العلماء إنما ييخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفافاً على الجهلاء من

أن يشقَّ عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه .
وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتقدير من
هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ،
وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً منغصاً كله شر
ويأس ، وأمل خائب وظن كاذب . وكنت أنا مصدر هذا البلاء ،
فكفرت بخروجي من الدار عما جنيت من سيئة ، وما كان أسعدني
بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقلَّ من صاحب البيت كلفاً بالإنسلاخ إلى غرفة الكتب
والنظر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قدمت أتجاوز حظ صاحب
البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاساً وأخفيها بيني وبين ثوبي ،
وأخلو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكنها كانت
تمتلئ دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر قبيح
الشكل ، ردىء الطبع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً متصلاً ،
يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشدد اختصاصهم فيه ،
ثم ينتهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت
معلوم . فدفعته إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبع ما يخفيه شكله
الدميم وطبعه الردىء وورقه الحقيق وجلده المبتذل البالي ، من هذا
السحر الذي خلب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعاً إلى التهاك عليه والتنافس
فيه . وكثيراً ما التمتست هذا الكتاب فلم أجده قريب المنال بين هذه
الكتب المرصوفة المعروضة ، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون

من النظر فيه حتى يخفوه إخفاء . فلم يزدني ذلك إلا كلفاً به وتبعاً له وإلحاحاً في البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعوون إلى الغداء ، وأن الغرفة ستخلو لى ساعات من نهار ، وأنى سأستطيع أن أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأجدنه ولأنظرن فيه ولأقضين معه أطول ما أستطيع أن أقضى معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى وليتهم ، وتخففت من أثقال ما كان على من عمل ، فانسالت مسرعة رشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة ، ومضيت في البحث غير قليل ، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغى . فيا للبهجة ويا للغبطة ، ويا للسعادة ويا للرضا ! هذا الكتاب بين يدي دميم الصورة قبيح الشكل حقير الورق ردىء الطبع ، ولكن اسمه « ألف ليلة وليلة » . وانا أقرأ فيه وأنا أمضى في القراءة ، وأنا أنسى نفسي وأنسى مكاني . ولكن ماذا أسمع وماذا أرى ؟ هذا باب الغرفة يفتح في غير احتياط ، وهذا رب الدار يدخل ! فقد كان مثلى ينتظر أن تخلو له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة التقديس ، وليمد إليها يده ملاطفاً مداعباً ، ثم ليقرأ من أشمائها وسطورها ما يبهير به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يرانى أنظر في كتاب ، وفي كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألنى ماذا أصنع ، وما أنا وهذه الكتب ؟ وأحاول أنا أن أخفى الكتاب الذى كنت أنظر فيه ، ولكنه قد أسرع فأخذه من يدي ، ثم زجرنى زجراً عنيفاً وطردنى من الغرفة طرداً .

على أنه لم يطل المقام في هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل
 ثائراً ساخطاً ، وأقبل على زوجه وفي يده هذا الكتاب فألقاه في وجهها
 إلقاءً ، واندفع في غضب لا حد له وفي شتم لا ينهى ساخطاً على
 زوجه المسكينة وعلى أبنائه البائسين ، صاباً عليها نُدراً متصلة
 بالكوارث والأحداث ، معلناً إليها في غيظ عنيف مرة وفي حزن
 أليم مرة أخرى ، خيبة أمله في هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين
 للعلم مؤثرين له مهالكين عليه ، فإذا هم أصحاب عبث واهو وجون ،
 وإذا هم ينفقون وقتهم في قراءة هذا الهذيان . ومن يدري ! لعلمهم ينفقون
 وقتهم في هذا أثناء إقامتهم في القاهرة على حين يظن هو أنهم يجدون
 ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجد ويكد وينفق حياته وماله
 ليضئ أبنائه في هذا السخف وفي هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يُضيعون
 وقتهم وجهدهم وجد أبيهم وكده وماله وأمله فحسب ، ولكنهم يخربون
 بيت أبيهم بأيديهم كأنهم يجهلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا
 خربته تخريباً .

ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقلباً ، وما
 يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها منتصراً
 ساخطاً معاً ، ثم يمزقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار !
 وقد غص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .
 وعاد الفتیان آخر النهار ، فلا تسأل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا
 عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن النتيجة الأولى

والأخيرة فيما أظن لهذا كله هي أنى طردت من الدار طرداً . ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها ، فقضيت فيها أسابيع أنتظر ما يجرى به القضاء ، وما تنتهى إليه حيلة البستاني الذى ضوعف له الأجر .

٢١

« ستعملين إذا كان الغد يا آمنة ، وستعملين عملاً يرضيك كما لم يرضك عملاً من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذى دفعتك الحماقة فيه إلى هذا الذنب العظيم . ستعملين عملاً مريحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . ستعملين . . . ستعملين وستسعين . ليتنى كنت مكانك ، ليت سنى تعود إلى حيث أنت من العمر . ستعملين وستسعين . . ! »

قالت ذلك وهى مضطربة أشد الاضطراب ، مبهجة أشد الابتهاج ، يدفعها الفرح والمرح إلى أن تأتى حركات مختلطة فيها الرقص والقفز ، وفيها الجذو والهلزل ، وفيها الدعابة التى ليس بعدها دعابة والمجون الذى ليس بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات فى الجسم كله مجتمعاً وفى أعضائه متفرقة . حركات هى إلى الجنون والاختلاط أدنى منها إلى الفرح المعتدل الذى يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن . ولم تكثف زنوبة باضطرابها هى ، واختلاطها هى ، وإنما انقضت على انقضاضاً ، فقبلتنى وأنهضتنى وراقصتنى ودارتنى حول الغرفة دوراناً

متصلاً سريعاً حتى انتهت بي وبمنفسها إلى السقوط ، كل ذلك وهى مندفعة فى حركاتها وأحاديثها ، لا تمكننى من أن أقول كلمة أو أنطق بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد استحالت إلى جنينة وأصبحت الغرفة ميداناً لا يضطربها المختلط الذى لم يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدُّوَارُ وأسقطنى معها على الأرض وحين أفاقت منه بعد قليل . . . هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة ، واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عنها ، فعلمت أن المهندس فى حاجة إلى خادم ، وأنه قد أرسل يتقدم إليها فى أن تلتبس له هذه الخادم ، وأنه يمنحها على ذلك أجراً يختلف باختلاف الخادم التى تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد . وهى مبتهجة لى وهى مبتهجة لنفسها ؛ فما أكثر ما قدّمت لهذا الشاب من خدم ! وما أكثر ما تقاضت منه أجر ما قدّمت ! ولكنها لم تقدم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلى ، لها مثل ما لى من جمال الوجه ، واعتدال القد ، ورجاحة العقل ، ومهارة اليد ، والعلم بحاجات الشبان المترفين . سيكون أجراً مضاعفاً ، أما أنا فسأسعد السعادة كلها فى هذا البيت الأنيق الجميل ، وفى خدمة هذا الشاب المترف الغنى الوحيد . لن تأمرنى سيدة الدار ، ولن ينازعنى خدام الدار . سأكون وحدى صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت ! فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه .

قالت ذلك وأرسلت شبيهتها المرتفع ، وشخيرها المنكر ، وضحكها العالى ، ثم انقضت علىّ وضممتنى إليها ضمّاً عنيفاً وهى تقول : « إني
(١٠)

لأغبطك وأحسدك معاً . أغبطك لأنى أحبك ، وأحسدك لأنى أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوى هذا البيت من نعيم .
وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرقق بها ، فلا أنبها بأنى قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً ، وأعددت له إعداداً ، واشتريته بالمال ، وانتظرت مقدمه واثقةً بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمري كله فى حاجة إلى الحزم وفى حاجة إلى المكر والكيد .

نعم ! لم أنبها من هذا كله بشيء ، ولم أنبها حين أصبحنا بأنى لم أذق النوم لحظة فى هذه الليلة الطويلة التى فرقت بين نفسيين ، وإنما قضيت الليل كله يقظة ، أفكر فى أمس البعيد وأفكر فى اليوم ، وأفكر فى غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع من حب ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر ، وبما ذاقت وما بقى لها أن تذوق من هو ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتى حركات مختلفة تلائمها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأستمعه ، فأرئى لها وأرئى لنفسى أيضاً : أرئى لها فى حياتها هذه الصغيرة الحقيرة التى خلت من كل حس دقيق ، أو شعور عنيف ، أو تفكير عميق . وأرئى لنفسى من حياتى هذه المضطربة التى يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتضعفها الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك فى أنه كان طويلاً ، وليس من شك فى أنه كان ثقيلاً لو فرغت له ، ولكنى شغلت عن الليل

بينات الليل . شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة
 البائسة هذه التي لم تكذب تحس أني خلوت إلى نفسي حتى تراءت لي ،
 ثم دنت إليّ ثم استقرت مني غير بعيد ، ثم أخذت تتحدث إلى نفسي
 حديثاً أعقله ولا أستمعه ، وأجد له في قلبي وقعاً لاذعاً حلواً معاً . صورتك
 هذه التي رأيتهما كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب ، وكما كنت
 أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت
 إلى شيء ، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكاني
 منك ، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك ، وحين كنت أواسيك
 وأعزيك وأجتهد في أن أفيض عليك السكينة وأشيع في قلبك الأمن
 والهدوء .

ها أنت ذى تسعين إلىّ وتجلسين إلى جانبي ، وهذا رأسك قد مال
 حتى استقر على كتفي ، وهذه يدي تلاطف خدك وتبللها دموعك المنهمرة
 الصامتة . وها أنا ذى أحلى بينك وبين البكاء حيناً وأمضى معك فيه ،
 ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير
 ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه .
 ولكنك تنهضين وتذهبين . ثم تعودين إليّ بعد قليل واجمة ثم مروعة ،
 وأنا أستقبلك رفيقة بك مهدئة لك . وهذه الأشباح الحمراء تترأى
 لنا كما كانت تترأى لنا في بيت العمدة قبل أن نأخذ في هذا السفر
 الأثيم ، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمى
 وتنهضى إليها ، وتستحيل إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء !

وها أنتن أولاء تطفن بي وتضطربن من حولي وتستبقن إلى أذنى تُردن أن تُلقين فيهما ألوان الحديث . وها أنا ذى مروعة مفعجة ، أرى الجنون وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكانى فى دارنا تلك فى أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة . وها أنا ذى أرى ينبوع الكريه يتفجر منه ذلك الدم الغزير . وها أنا ذى أنهض خائفة موهة ، أريد أن أفر من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن جاثم ؟ وأين تستطيع فتاة مثلى أن تذهب والليل ساكن جاثم ؟ لأوقظ هذه المرأة التى تختلف عليها الأحلام وتنعم بلدة النوم فى ناحية من نواحي هذه الغرفة . لأوقظها ولأقضى معها بقية الليل فى الحديث . . . ولكنى لا أكاد أسعى إليها حتى تأخذنى الأشباح الحمراء من كل مكان ، وحتى تسعى إلى أختى وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة ، وهى تلقى فى نفسى هذه الكلمات التى تقع منها مواقع السهام المحرقة : لانتوقظها إنها تخيفنا ، وإن يقظتها تطردنا ، ماذا تخافين منا ؟ لقد طالما ألفتينا وألفناك ، أفنسيتنا إلى هذا الحد ! ؟ كلا ! كلا ! لم أنسكن ولن أنساكن ، ولن أذودكن عن نفسى ، ولن أوقظ هذه المرأة التى تخيفكن . أقيمى معى ، أطيّفنى بى تحدثن إلى ، فمن يدرى ! لعلى أن أكون فى يوم من الأيام واحدة منكن ، لعلى أن أكتسى هذا الرداء الأحمر القانى الذى تكتسبينه والذى يدعونى إليكن ويخيفنى منكن . . !

وهذا صوتك أيها الطائر الغزير يحمله إلى الهواء من بعيد فيبلغنى

نحيلاً ضئيلاً ، ولكنه على ذلك يشيع في سكون الليل كما يشيع الضوء في الجو . . .

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو مني شيئاً فشيئاً فيملؤني أمناً ودعة وهدوءاً ، وحنناً معاً . إنه يردني إلى اليقظة الخالصة التي تشعر بنفسها وتفكر في نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له ، وتستقبل ما سيأتي في روية وبصيرة واستعداد للاحتمال . . .

نعم ! إن صوتك ليلاً أذني ، وإنه ليلاً قلبي ، وإنه ليغمر نفسي ، وإني أفهم عنه ما يريد ، وإني لأذكر أختي ومصرعها ، وإني لأعرف من دفعها إلى الموت ، كما أعرف من أذاقها الموت . وإني لأعلم حق العلم أني ساعية إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت أختي ، فناهضة بما كانت تنهض به أختي من العمل ، فنتية بعد إلى شئ آخر غير الذي انتهت إليه أختي في ذلك الفضاء العريض . . .

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز ، وفهمت عنك ، وهذا عقلي يشوب إلى ، وهذه قوتي تُردُّ على ، وها أنا ذى أنتظر الصبح لأسعى إلى هذا المهندس وإن قلبي لمظلم أشد الإظلام ، وإن وجهي لمبتسم أجمل الابتسام .

وأقبل سيدى الحديد على مبتسماً راضياً يحرق النظر فى وجهى تحديقاً طويلاً ، ثم يفصل النظر إلى جسمى كله تفصيلاً ، كأنه يتمتع متاعاً يريد أن يشتره . ولو قد استطاع لنهض إلى فاختبرنى بيديه اختباراً وتعرفنى باللمس ، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياة ، فاكتفى بهذه النظرات المتصلة الطوال التى تجرد المرأة من ثيابها تجريداً ، والى كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب نائرة لها أشد الثورة .

ولكنى كنت أتمالك ما وسعنى الجهد وضبط النفس ، حتى لا يرى على اضطراباً ولا ثورة ولا شيئاً ينكره . وهو يسألنى عن اسمى ، وعن أهلى ، وعن أمرى كله ، فألق له من ذلك ما ألق ، وأزین له من ذلك ما أزين . وهو يسمع منى مصدقاً لى أو غير حافل بما يسمع ، إنما يريد أن يعرف صوتى ووقع حديثى . ثم هو يأمرنى أن أقبل وأن أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى شمال ، وأنا أستجيب لكل ما يدعونى إليه . وقد هدا اضطرابى وسكنت نفسى ، وعادونى صوابى ، وأنا أتحدث إلى نفسى بأن هذا الفتى يعرف حقاً كيف يكون شراء الرقيق . . !

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أنى سألقاه قائمة باسمه . أقبل إلى فى ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكذب يبلغ باب

الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح ، حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت لقد جاوزت ثلثيه ، وما كان ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي ، فهايدريني ! لعله يحتاج إلى شيء .

قال وقد عاد إليه ثباته وهذوء نفسه ، واسترد صوته شيئاً من قبحته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أن أرى من سبقك في خدمتي . وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض الجهد ، فلست أدري ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات ! قلت فقد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ؛ فليأمر سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سنجاً وقد مد إلى يده وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعْتُ حتى لا تبلغني . فإن سيديك يأمرُك أن تتبعه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في أثره . . .

وصلدق المسكين أني كنت أنتظره . ولو قد نفذ إلى قلبي واستمع إلى أحاديث نفسي لعرف أني لم أكن أرقه في انتظاره ، وإنما كنت أسامر أشباحاً حمراء لو رآها الملعقة رعباً ولوأتى منها فراراً . ولكن لم ير إلا إياي ، ولم يفكر إلا في ، وما له وللأشباح الحمراء !

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة ، راضية عن نفسي كل الرضا ، مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو في ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات النضال ، فلم أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثابتاً ، ثم انصرفت عنه وقد علقته بين السخط والرضا ، ووقفته بين اليأس والأمل . لم أجد في شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عناء ، وإنما هو الابتسام المطمع المغري ، والاحتشام الذي يفلّ العزم ويشبط الهمم ، ويبسط سلطان الحياء على النفس فإذا هي ترتد بعد امتدادها ، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراقه .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول ويحرق بها الخطر ، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب فإذا ضعف واستثثار ، وإما قوة وانتصار ، يتبعهما الطرد العنيف من هذه الدار . ولكني ملكت أمري وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة الأولى مقدمة لا خاتمة ، وما أجّل الفصل في هذه الحصومة إلى أجل ظنه قريباً ورأيته بعيداً . وقد انصرفت عنه بعد أن أعنته على بعض أمره وهيأت له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج ، وهو يقول : لا بأس ! إنك في حاجة إلى التربية والتمرين .

ولم أكّد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقاً محكماً حتى
 تراءت لي أختي وهذه الظلال التي ترافقها ، كأنما كنّ ينتظرنني ليعلمن
 علمي وليسمعن نبأ ما أبليت مع الخصم من بلاء . ولقد هممت أن
 أتحدث إليهن ، وأقص عليهن ما شمتعت وما رأيت ، وما عملت وما أبيت .
 ولكن ماذا ؟ لهن ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلمع في وجوههن الشاحبة
 ابتسام الرضا ، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً .
 وكنت أظن أني سأنتظر معهن مطلع الفجر ، سامرةً كما كنت أسمع
 منذ حين قبل أن يرقى إلى سيدي كأنه اللص ، ولكني ألتسهن من
 حولى فلا أرى لهن محضراً ولا مظهراً ، وألتسهن في نفسي فلا أظفر
 منهن بشيء . لقد غيبت عن عيني وغبن عن نفسي ، وكأنهن أمرن
 الذكري أن تتبعهن وتمضي إلى حيث مضين . فأنا أريد أن أذكر
 فلا أستطيع ، وأريد أن أفكر فلا أجد سبيلاً إلى التفكير . وأنا آوى
 إلى مضجعي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن للقوة البدنية حدّاً ،
 ولكن للتعب سلطاناً هو بأسطه ، وغاية هو بالغها . ولقد قضيت ليلة
 لم أذق فيها النوم ، وهذه الليلة الثانية قد انقضى أكثرها ، وكادت
 تتوالى نجمها تنغور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم
 كرهت

ومن أجل هذا فارقني أيتها الأخت العزيزة ، وفارقتني معك هذه
 الظلال الحمراء . إنكن لرفيقات بي شفيقات على . وما يمنعكن من
 ذلك وأنا عندما تُردن ، لم أهين ولم أضعف . ولم أهنم لهذا العدو

الماكر القوى ! ليت شعرى : أكتن ترفقن بى ، وتشفقن على ،
وتنصرفن عنى وتخلين بينى وبين النوم ، لو أنى خالفت عن أمركن
واستجبت ، أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض الذى كان يرسله
إلى سيدى بالعين واليد واللسان ؟ !

٢٤

على أن الأمر بين سيدى وبينى لم يلبث أن تعسر بعد يسر ،
وتعقّد بعد سهولة ، واشتد بعد لين . فلكل شىء أجل ، وللصبر أمد
ينتهى إليه ، وللمطاوله غاية تقف عندها ، والمياسرة خير إلا أن تستحيل
إلى ضعف وإذعان . وما ينبغى لسيدى أن يظهر مظهر الضعيف
المدعن لخادم مثلى ليس لها حول ولا طول ، وهى لا تأوى إلى ركن
شديد ، ولا تعتر بقوة تحميها من بأسه وتعصمها من سلطانه ، وإنما
هى كلمة منه تبقياها فى داره عزيزة مكرومة أو تخرجها من هذه الدار
ذليلة مشردة . وقد علق سيدى هذه الكلمة فى طرف لسانه أياماً وأياماً ،
يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفثيه وكادت تتجاوزهما إلى الهواء الذى
يحملها إلى رُدتْ إلى مكانها واستقرت فى موضعها من طرف اللسان
استقراراً وأطبقت شفثاه من دونها إطباقاً .

ومدّت لى أسباب البقاء فى هذه الدار يوماً أو بعض يوم ريثما
يخرج سيدى لبعض شأنه ، ثم يعود فيدعونى إلى ما كان يدعونى إليه

فى هذا الإلحاح المتصل ، المضحك المحزن ، الذى يفسد على الرجل أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر ، عزيزاً كأنه السيد وذليلاً كأنه العبد ، ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات الجوفاء التى يملؤها الاستعطاف حين تكون نديراً ووعيداً ، ويملؤها المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاء ، وتصور دائماً نقيض معانيها الظاهرة ، وتعتبر دائماً عما لم يُرد صاحبها إليه ، ويملاً نظراته بهذا الشرر المحرق حيناً ، ثم بهذا الانكسار الدليل حيناً آخر ، ويجعله يدور حول غايته التى يشتهها وأمنيته التى يبتغيها ، كما يدور العابد حول الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يبتغى ثغرة ينسل منها إليه !

نعم ! كذلك كنت ألقى سيدى مع الصبح باسمه مشرقة الوجه ، أحمل إليه قدح الشاى وبعض الفاكهة قبل أن يثب من سريره . وقد كان سيدى يحيا حياة الإنجليز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ، فيها الحب وفيها البغض ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوعيد وفيها الخوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى هذا وأحسه وأفهمه ، ولكن ! يا لثقة النساء ! إني لأقبل عليه بالشاى والفاكهة والتحية كأنى لا أرى شيئاً ، ولا أحس شيئاً ، ولا أفهم شيئاً ، ثم أنصرف عنه وفى نفسى ما فيها من الرضا ، وفى قلبى ما فيه من الإشفاق ! فقد كنت راضية عن نفسى وساخطة عليها ، وقد كنت شامتة فى سيدى ومشفقة عليه ، وقد كنت أرضى لنفسى ما أنا فيه من الإطعام

والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذى قتل أختى .
 وكنت أنكر على نفسى هذا كله ، وأراه لعباً بالنار ، وتكلفاً للشر ،
 وإمعاناً فى الإثم . وقد كنت أرى أنى قد خلقت لنفسى جواً من الرذيلة
 أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أمسيت ، وأتنفس هواءه
 المنكر ، وأبعث فيه سماً زعافاً . فما هذا الكيد الذى أكيدته ؟ وما هذا
 المكر الذى أمكره ؟ وما هذا التفكير الآثم الذى أملاً به رأسى وقلبى ! ؟
 أصبح فأفكر فى هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنغص عليه يومه ، وأمسى
 فأفكر فى هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأورق عليه ليله ! وأنا فيما بين
 ذلك لا أنفك أفكر فيه ، عاطفة مرة ، وصادفة مرة أخرى ، لينة
 حيناً وقاسية حيناً آخر .

هذا كثير ! وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن تفرغ
 لما هو أطهر منه وأبقى ، وأكثر من هذا وذاك أن يستسلم هذا الشاب
 لما يغمره من ضعف ، ويتورط فيما يُبث حوله من شباك ، ويتعلق
 بفتاة مهما تكن فهى ليست شيئاً ، والفتيات غيرها كثير يستطيع
 أن يلتمسهن متى شاء وكيف شاء . وأى شيء أيسر من أن يرسل
 بستانيسه إلى زنوبة أو إلى امرأة أخرى من أشباه زنوبة ، فلا ينقضى
 اليوم حتى تكون عنده فتاة أو فتيات يختار من بينهن من يشاء ! فما
 أكثر هؤلاء الفتيات اللاتي يلتمسن العمل فى المدينة قد نشأن فيها أو
 انحدرن من الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام ! ولكن نفس الإنسان
 ضعيفة حقاً ، وقوية حقاً . لقد أقبلت على نفس سيدى كما أقبلت

على غيرى تلتمس عندى الحب ولذاته وآثامه ، فلما وجدت منى امتناعاً عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه ، أعرضت عن الحب ولذاته وآثامه ، أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بى أنا ، تريد أن تقهرنى وتغلبنى على أمرى وتنصر على ، وتظفر منى بما تريد .

فسيدى لا يطلب عندى الآن حباً ولا لذة ولا إثماً ، وإنما يطلب إلى " خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً . هو يريد أن ينتصر لا أن ينعم . ومن يدرى ! لعله إنما يؤجل إقصائى عن داره حتى يتم له النصر ، ويتحقق له الفوز ، فيخرجنى ذليلة صاغرة قد آمنت له وأذعنت لسلطانه ! ويكفى أن يخطر لى هذا الحاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد ، ملحة فى الخصام ، قد نسيت الانتقام أو كدت أنساه ، وأعرضت عن أختى وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن ، ولم أتمثل إلا عدواً يريد أن يقهرنى ، ولا بد من أن أقهره ، وسيداً يريد أن ييسط سلطانه على ، ولا بد أن أبسط سلطانى عليه .

وكذلك اتصلت حياتى فى هذه الدار هادئة فى ظاهر الأمر مضطربة أشد الاضطراب وأعظمه نكراً فى حقيقة الأمر . ألقى سيدي باسمه ويلقانى باسماً ، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام إلى عبوس ، والرضا إلى سخط . وإذا هو يدعو فأبى ، ويلح فى الدعاء فألح فى الإباء ، ويغرى فأرتفع عن الإغراء ، وينذر فاستخف بالندير ، ويستعطف فأقسو على الاستعطاف .

ثم - يا للهول - ماذا أرى ؟ وماذا أسمع ؟ وماذا أجد ؟ هذا سيدي

مائلا بين يدي يتلطف ويتفرق ثم يستطعم ويستجدي ، ثم هذا هو
جائئاً بين يدي كأنه يتقدم إلى الصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ،
ثم هذا هو مجهشاً بالبكاء ، وها أنا ذى أكاد أضعف ويكاد يأخذني
الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إلى أختي وظلالها
الحمراء أتمس منهن العون ، وأستمدهن قوة إلى قوة .

وأمضى بعد ذلك فيما كنت فيه من إباء ، ثم ينتهي الأمر بيننا
إلى شيء يشبه المواجهة ، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسى ، وإذا
هو قد أخلص لى ولنفسه ، وإذا نحن نتحدث فى هدوء وأمن واستقرار .
فأما هو فقد استيقن اليأس وعجز عن احتمالته ، وأما أنا فأهون عليه
الأمر مخلصاً صادقة وأزوين له الانصراف عني إلى من أحبّ وما أحب
من الخليلات والخدم واللذات ، وإذا نحن نتفق على أن نفرق ،
وإذا هو ينصرف عني على ألا يراني في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل
ذلك راضية عنه سعيدة به ؛ فقد سئمت هذه الحرب وضعفت عن
هذه الخصومة ، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة ،
وتثقلها المهاجمة والمقاومة ، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير
من الإياب . فسأخرج من الدار ظافرة بعض الشيء . أليس قد عجز
هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغنيّ القوى أن يبلغ منى ما بلغ
من أمثالي ؟ أو لست أخرج من هذه الدار وقد جرّعته مرارة الهزيمة ،
وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات
لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء ! ؟

ولقد انصرف عنى هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى أتهياً للرحيل
 مزمنة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقم في المدينة ولا أعود إلى
 أقصى الريف ، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التي تمضي إلى
 الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض
 الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه . وها أنا ذى قد حزمت أمرى
 وجمعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستاني موكل
 بالدار يمنعنى أن أخرج منها ويحول بينى وبين الباب ، وينبئنى بأن سيده
 ألقى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بينى وبين الطريق ،
 وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع ليمسكنى في الدار حتى يعود .
 وإذا فلم يكن جاداً حين اتفق معى على أن نفرق . وإذا فلم يكن هادئاً
 حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان ما كرراً
 مخادعاً . ومن يدرى ! لعله كان صادق العزم خالص الرأى ، فلما
 انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن
 يرسل هذه الفتاة ولما يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كدت أستئس من ذلك الخاطر الذى كان
 يعيننى أول الأمر على المقاومة أو يغرينى بها أو يدفعنى إلى الإغراء
 والإطاع ثم إلى الإباء والامتناع ؛ فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب
 فى أرباب ، إنه يشتهينى كما اشتهى غيرى من الفتيات ، وإن امتناعى
 عليه قد زاده حرصاً علىّ وتعلقاً بى . ولست أكذب نفسى فكثيراً
 ما سألتها : أترى شهوته قد استحالت إلى حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة

أنه لا يحبني ، بل لم يحبني قط ، وأنه لا يشتهيني ، ولعله يزدريني ،
ولنما يريد أن يقهر فيّ عدواً متمرداً وخصماً عنيداً ؛ فلا تلقين البأس
بالبأس ، ولا تلقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الحرب لو أتى رغبت في الحرب أو فكرت فيه ،
لكنني كنت أريد أن أترك الدار جهرة لا سراً ، وعلى علم منه لا على
جهل . ومن يدرى ! لعلني لم أكن أحب أن أترك الدار ، وإن كان
هذا الخاطر لم يعرض لي ظاهراً جليلاً . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر
ما يعود الآن مع المساء ! وينفق ليله كله في الدار لا يسمر ولا يلقى
أصحابه . ومن يدرى ! بم كان أصحابه يعلنون انقطاعه عن السمر وإيثاره
للعزلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا ، ويلقاني كما
انصرف عني مبتسماً في كتابة ، وهو يسألني : أما تزالين هنا وقد فارقتك
على ألا ألقاك إذا عدت ؟ !

أجل ! فارقتنى على ألا تلقاني ، ولكنك أمرت خادمك ألا يخلني
بينى وبين الطريق .

ومن زعم لك هذا ؟ لقد كذبتك الخادم ، وما أرى إلا أنه حريص على
بقائك ، كاره لفراقك ! ومن يدرى ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء
معه والاتصال به ، فهو الذي سماك لي ، وهو الذي أنبأني بمكانك ،
وهو الذي جاء بك إلى هذه الدار . إني إذن لأحق ! لقد
خدعني هذا البستاني ، ولقد اتخذ داري مسرحاً للهو وهواه .
فأنت إذن لا تعرضين عني ولا تمتنعين عليّ إيثاراً للشرف واستبقاء

للعفاف ، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع العفاف منذ أقبلت
أو قبل أن تُقبلي على هذه الدار . وفي سبيل مَنْ ذهب الشرف ؟ وفي
سبيل مَنْ ضاع العفاف ؟ في سبيل هذا البستاني الذي تهوينه ، وما
أشك في أنه يهواك .

وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك
أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئناف ما بيننا من الخصام .
ولكنه لم يكد يمضي في حديثه حتى أخذ هدوءه يفارقه شيئاً فشيئاً ،
ولم يكد ينتهي إلى غايته حتى كان غضباً كله ، وشرّاً مستطيراً يتمثل
إنساناً يتكلم ويتحرك ، ذاهباً جائئاً متهيناً للبطش لا يكاد يمتنع عنه
إلا في جهد شديد .

على أني لقيت عنفه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدّم
إليّ من ألوان العنف واللين ، ومن ضروب السخط والرضا ، ثابتة
مطمئنة ، وقلت له في هدوء : لا بأس عليك ! خلّ بيني وبين الطريق ،
ثم تبين بعد ذلك أتجمعني بالبستاني جامعة ، أو تصلني به صلة .
فلئن خلّيت بيني وبين الطريق لآخذن أول قطار ، ولولا أن أشق على
مولاي وأكلفه ما لا يتكلف السادة للخدم لعرضت عليه أن يضعني
في القطار وأن يرسلني إلى أي مدينة شاء ؛ فإني لا أبتغي إلا أن أعيش ،
في حيث آمن على شرفي هذا الذي لم يذهب ، وعلى عفافي هذا الذي
لم يضع وإن ظن سيدي بي الظنون .

قال في غيظ يشبه الرضا وفي سخريّة تشبه الجحد : ما تزالين تذكرين

السادة والخدم ! فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة ، وإنما بينا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت : وما ذاك ؟ قال : هو هذا ... ثم اندفع إلى هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرداً ، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحبت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت . ولا تدعن إلا إذا رغبت في الإذعان . ومن أجل ذلك ارتدّ عنى كما هجم علىّ ، واستؤنف الحصام بيننا كما كان من قبل عنيفاً ليناً ، وملتوياً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الألوان التى تفسد حياة العاشقين وترينها فى وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجد لنفسى منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دُفع كل منا إلى صاحبه دفعاً ، ورُدّ كل واحد منا عن صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجنى من داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ولا أستطيع أن أفارقه جهرةً ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبنى حيث أكون من الأرض . فليس عندى شك الآن فى أن سيدى لا يشتهينى ولا يبتغى أن يظهر علىّ ويتنصر على خصم عنيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطمع فى كل شيء ويرضى بأقل شيء ، بل يرضى بلا شيء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما فى ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المضمئ إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنبى أنا ، فما خطبه ؟ أمبغض هو كما كان مبغضاً من قبل ؟ أراغب هو فى الانتقام كما كان راغباً من قبل ؟ أحافظ هو لعهد هذه

الأخت التي صُرعَت في ذلك الفضاء العريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التي تقيم معها على هذا الينبوع الأحمر ، والتي قد طال مقامها معها حول هذا الينبوع ، وانقطعت زيارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟ نعم ؛ الشك في هذا القلب الذي يضطرب بين جنبتيَّ بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبني ولا يستطيع عني سلواً . ما خطب هذا القلب ؟ أحب هو أم غير مكترث ؟ فإن تكن الأولى فقيم المقاومة ، وقيم العذاب ، وقيم تعذيب الحبيب ؟ وإن تكن الثانية فقيم البقاء في هذه الدار ، وقيم الصبر على هذه الحياة التي لا تطاق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة ، ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد ... فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزى أمرك فقد آن لك أن تعزميه . أقيمى كما تقيم العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها غناء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

وقد فكرت سعاد ، وما كانت في حاجة إلى التفكير . وقد امتلأ قلبها وعقلها بهذه الحياة التي تحياها امتلاء ، وامتزجا بها امتزاجاً ، حتى أصبحت جزءاً منهما أو أصبحتا جزأين منها ، وحتى أصبح من

أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التي تتصور مرة كأنها النفور الذي لا نفور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذي لا إقبال بعده ، وهي في الحالين شيء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذي هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها في يقظة أو نوم ، إنما هي مستصحبة هذا الشاب إن حضر ، ومستصحبة هذا الشاب إن غاب . لا تهم بالخلة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه ، ولا تمد عينها إلا رأت شخصه ، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد ذاد عنها كل شيء وكل إنسان ، وذاد عنها حتى أختها تلك العزيرة وأشباحها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صُرفت إليه عن كل شيء ، وصُرفت إليها عن كل شيء .

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير في الصراع ، وإنما هو الإذعان الذي لا ثورة بعده والاستسلام الذي لا رجوع فيه .

ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها فتصرعه ، وتغالב العشق فيها فتغلبه . وما أكثر ما اندفعت الفتاة

إلى الاستسلام ! حتى إذا كادت تنتهى منه إلى غايته ، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عنيفة ، ونصبت أمام عينيها مرآة تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة ، وترى صورة سعاد الضعيفة المتهالكة ، فترتد وراءها خطوة أو خطوات ، وتوجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول !

وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ؛ فهو محب يلقى من الحب عناء وبلاء ، ويجد من آلامه مثل ما أجد . ولكن كبريائه قد ردت إليه هو أيضاً فأصبح يتمنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأنما أحس في حبه شيئاً من حياء فأثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فأثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا ، وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والحزن . يقبل على ذات مساء لا ثائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى فى صوت لا حدة فيه : لقد آن لك أن تستريحى ، وأن لى أن أستريح ! فأنظر إليه نظرة التى لم تفهم عنه والتى تعودت أن تسمع كثيراً ففهمهم أو لا تفهمهم دون أن تحفل بما يستقر فى نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه يعيد على حديثه فأسأله عما يريد ، فيقول : سنفترق لأنى نقلت إلى القاهرة .

وتقع من نفسى هذه الجملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا ذاهلة لا أجيب ولا أتكلف حتى إخفاء الدهول ، وإذا أنا أجد شيئاً من الدوار

يكاد يبلغ بي الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تهمر في صمت متصل ، وإذا الفتى يدنوني فلا أرتد عنه ، وإذا هو يضع يديه على كتفيّ فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا مغرقة في الصمت ودموعي ماضية في الانهمار ، والفتى قائم بمكانه مني في هدوء لم أعهده ، ينظر إلى صامتاً دهشاً ، ثم ينأى عني قليلاً وهو يقول في صوت شاحب : ماذا أرى ! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمته ، وأمضي أنا في صمتي ، وتمضي دموعي في الانهمار . وما أدرى أطال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكني أسمعته يدعوني في صوت قد فارقته شحوبه وعطاد ممتلئاً مشرقاً كما عرفته ، وأرفع رأسي وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المتسكبة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراق قد استقرت فيه أمارات الحزم والهدوء ، وإذا هو يقول لي : أما والأمر بيننا على ما أرى فإن نفترق . ستصحبيني إلى القاهرة ، ولن ينالك مني إلا ما تحبين . هكّمْ فامضي في شؤونك كما تعودت أن تفعل ، وهيئ من أمرك وأمري للسفر ، فلن نقيم هنا إلا أياماً .

ينصرف عني كما أقبل عليّ هادئاً رزين الخطى . وقد أنكرت من نفسي كل شيء ، وأهم أن ألوم نفسي على هذا الضعف الذي لم أستطع إخفاءه ، ولكني لا أجد من نفسي قوة على اللوم ، وإذا أنا راضية عن هذه الحال الجديدة رضاً عميقاً قد مازج نفسي واختلط بدمي ، ولكنه في الوقت نفسه رضىً حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما هي

حياة الخادم التي اطمأنت إلى ما يلم بها من الأحداث ، ومضت في حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هي مستسلمة تذهب وتجيء ، وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد في هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى " منذ ذلك الوقت نظرات برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به السيد النقي " من الخادم النقية ، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استؤنفت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحداً لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي أنبأني فيها أنه قد آن لكلينا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإني لأدعو أختي حين أخلو إلى نفسي في النهار وحين أخلو إلى نفسي في الليل فلا تستجيب لي صورتها التي كنت أعرفها في المدينة باسمه مشرقة ، ولا تستجيب لي صورتها التي عرفت في بيت العمدة واجمة هائمة ، لا تستجيب لي صورتها التي كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر ، تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لي صورة من هذه الصور ، وإنما هي ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفريات وقد تنهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتي المضيفة الهادئة ، الحزينة في غير تكلف لحزن أو سرور .

وأننتقل مع سيدى إلى القاهرة وأقيم معه فى دار أبويه موكّلة بخدمته
لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجِد من أبويه إلا برّاً
وعطفاً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كلّما تقدّمت
الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفانى
لنفسه ، واختصنى بوده ، وجعل يشركنى فى كثير من أمره .

يا لله ! إني لأحس شهباً بين هذه الحياة التى أحيّاها مع هذا
الشاب فى دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التى كنت
أحيّاها مع خديجة فى بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد
الأمر بينى وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بينى وبين خديجة من
النقاء والطهر . ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التى تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف
الغنى ، وهذه الخادم البائسة التى طالما طمعت فيها نفسه الطامحة ،
وأغرت بها عواطفه الجامحة ، والتى طالما اتخذها غرضاً لأهوائه الأثمة ،
وايتفى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند
أمثالها من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشئ حاصرها
كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ،
ولم تستطع أن تقهره . وأقاما معاً فى شئ من المواعدة لا يستطيع عنها
سلواً ، ولا تستطيع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من آماله ومطامعه
بقليل أو كثير ، ولا تلقاه هى من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير
لأنها لم تعد فى حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسي أم أصدّقها؟ أأصارحها بالحق أم أموّه عليها الأمر؟ لقد رضيت حياتنا الحديدية واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان ، واغبتبت بها نفسي أشدّ الاغتياب ، وارتاح إليها ضميري هذا المتعب المعذب الذي كان في حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظل قلبي مطمئناً ونفسي مغتبطة وضميري مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور في مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالّت وبأن هذه المواعدة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغي أن تتصل ؟ ألم أجد في أعماق ضميري شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الحصار ؟ ألم أحس في دخيلة نفسي أن حياة هذا الشاب قد يكون لوناً من الصدّ وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراض ؟ بلى ؟ وجدت هذا كله وأنكرته من نفسي أشدّ الإنكار ولتها فيه أعنف اللوم ، وما أشك في أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولام نفسه في مثل ما كنت ألوم نفسي فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلًا على نفسه وعلى نفسي أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التي ألفها في الأيام الأخيرة من حياته في الأقاليم ، فكان يغدو إلى عمله مصباحاً ويروح إلى دار أبيه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يُلْمون بدورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفي القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن

أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهجيا بمحضر ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما وجدا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الترغيب ، وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والروح إلى الدار ، والأوقات ينفقها مع أبويه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعانى إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع منى ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفة غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعانى إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس ! ولكنى كنت أعذر باسمه ! فما ينبغي لمثلئ أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلى من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان بيننا من الائتلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها

أكثر من الود الذى يكون بين الأصدقاء ؟ ! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حباً ثائراً أكتمه على ما كان يكلفنى كتمانها من الجهد ويحتملنى من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خدعنى أو كاد يخدعنى عن نفسه ، ولكنه ألقى النقاب ذات مساء فغىّر من أمرنا كل شيء ، ألقاه فى غير جهد وفى غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القاب الذى تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلىّ فى هذا الأمر كما كان يتحدث إلىّ فى أمر المدينة وفى أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا اعوجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهى إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذى اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكننا عنه وقتاً طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلنى ساعة . أما ينبغى أن تنتهى هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنى لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتى استأنف حديثه فى صوت لا يزال سواء ، فقال : إنك تفهمين عنى اليوم ما أريد ، كما فهمت عنى من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل إني لم أفهم عنك شيئاً . قال صاحكاً : بل تفهمين أنى كنت أريدك على الإثم ، وأنى الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتجت إلى أن أعتد على كرسى كان منى غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط ، وما كان ينبغي أن تخطر لي ؛ فقد أقدمت على كثير من خطير الأمر وتصورت في نفسي كثيراً من جليل العمل ، ولكنني احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني البغض ، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس ، عن طورى في لحظة من اللحظات . لذلك أحبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه .

قال وهو يضحك : فإنك تظنين أنى أعبت ، وتقدرين ما بينك وبينى من الفرق الاجتماعى متى تزوج السيد الغنى المترف من خادمه الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأرجى نفسك إذن من كل هذه الحواطر ؛ فقد رأيت منذ موقفنا ذاك في المدينة أنى لست سيداً كغيرى من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيتك تنتظرينى إلى آخر الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقنك إلى خدمتى ، ولكنى لم أكن أقدر أنك ستثيرين في نفسى ألواناً أخرى من الدهش .

ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، ولبثت ماثلة ذاهلة لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعى شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال في صوت هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت في صوت : ليس أقل من صوته هدهوءاً ولا حزناً : فإن سيدى يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل ، قال : تفكرين

فى أبوى ! فأنى قد فكرت فىهما قبلك وقد حزمت أمرى ، وما أشك فى أنهما لن يمتنعا علىّ ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ، ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل . قال : فمن حقّ عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراق بيننا مستحيل ، وإنى لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبينا رضاً إلا فى الزواج . قلت : فقد قضى على قلبينا ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذى قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتى يحتبس ، ودمعى ينطلق ، وإنى لأرأى أهم بالانصراف ، وإنى لأراه قد نهض من مجلسه متثاقلاً وسعى إلى متباطئاً حتى ردى فى هدوء ودعة ، ثم عاد إلى مجلسه وقال : أترين إلى كيف أملك نفسى ! ألا تفكرين فى تلك الثورة الجاحمة التى شقيت بها وقتاً طويلاً .

أنبئنى من ذا الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التى قضت علينا هذا العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شروناكر ، وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المواعدة الهائلة التى لا ينبغى أن نطمع فى خير منها ؛ فليس فى الحياة خير منها بالقياس إليك ولا بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : فخير لنا أن نقبله على ما فيه من غموض . قال : وقد ظهر أنه يبذل جهداً عنيفاً ليحتفظ بهدوئه : فأنى أقسم لك أنى لم أعد أستطيع صبراً على هذه الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن ما الذى

نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أى قضاء ؟
 ألم يأن لك أن تفصحى ، ألم يأن لى أن أفهم ، ألم يأن لهذه الظلمة أن
 تنجاب ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إني لأخشى إن انجابت
 عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر فى وجه
 صاحبه . قال : وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلا واضطربت يده
 اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت :
 فأذن لى إذاً بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسي
 الذى كنت أعتمد عليه ، وألقيت عليه قصتى فى صوت هادىء مطرد
 لا يلبثه الدمع ولا يظهر فيه الحزن ، ولا يلم عن قليل أو كثير من الاضطراب ،
 إنما ألقيت عليه قصتى كأنى أتحدث عن شخص غريب إلى شخص
 غريب .

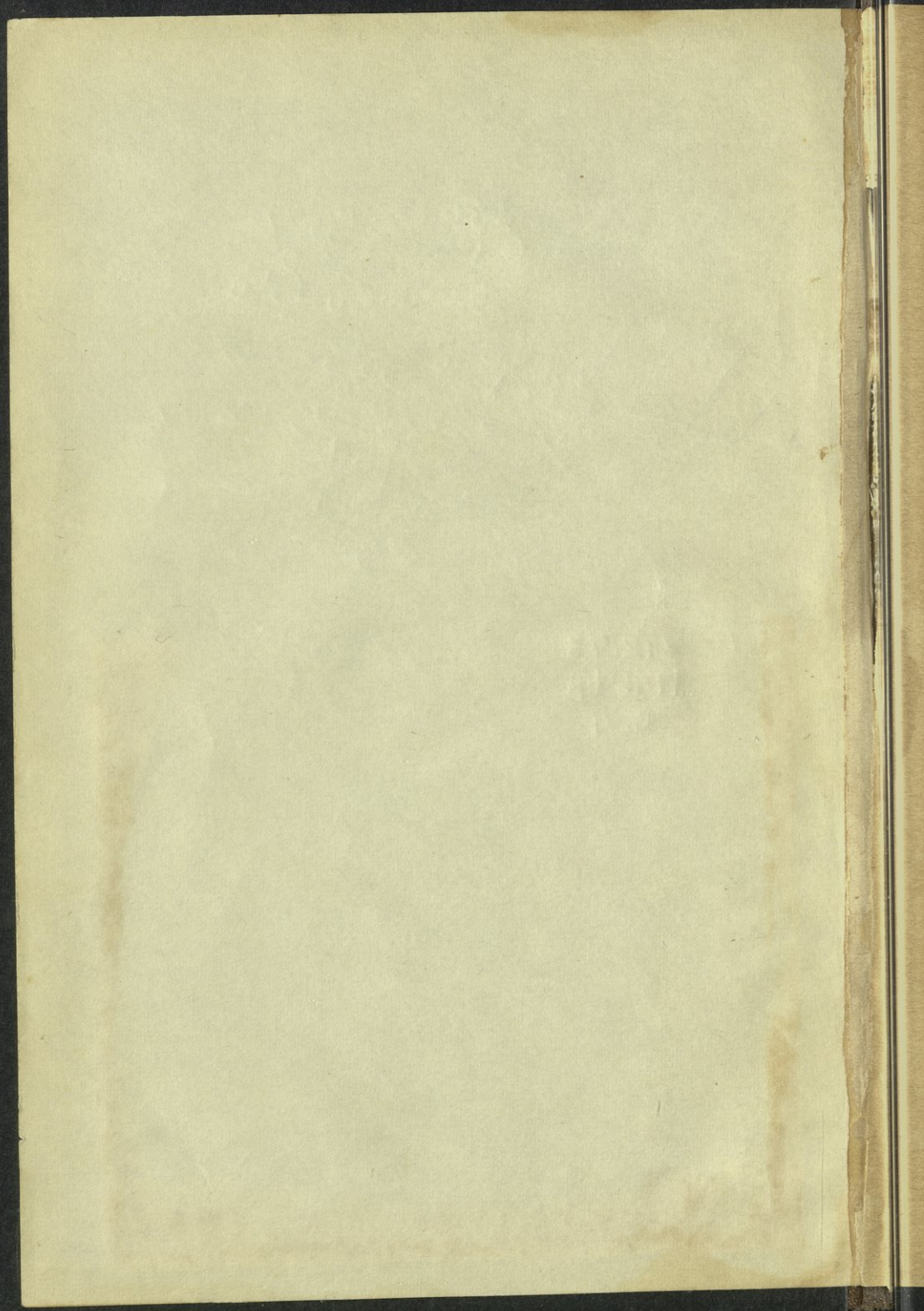
وما أدرى أطال الوقت الذى ألقيت فيه قصتى أم قصر ، ولكنى
 أعلم أنى سمعتنى أقول : أفهمت الآن ؟ أترى إلى هذا الضوء الذى
 يغمرنا ؟ أستطيع أن تنظر إلى " ، وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة ،
 ولكنى سمعته كأنما كان يتحدث إلى " من مكان بعيد جداً ، سمعته
 يقول : نعم ! أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ،
 وأنت أنطيقين أن تنظرى إلى " ؟ أما زلت تضميرين الانتقام ؟ ولم أجب
 إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التى انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو
 يسيل من عينها دموعاً . ثم أسمعته بعد وقت لا أدري أكان طويلاً أم
 قصيراً يقول لى : لقد كان من الممكن أن نفرق قبل أن يغمرنا هذا

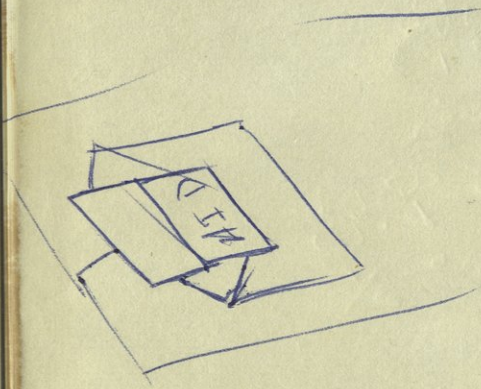
الضوء ؛ فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التى خرجنا منها ؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدى فى هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم فى نوم برىء من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغنى فينتزعنى انتزاعاً من هذا الصمت العميق ، فأثب وجلة مدعورة ، ويثب هو وجلا مدعوراً ، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء فأما أنا فتنحدر على خدىّ دمعتان حارّتان . وأما هو ، فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة : دعاء الكروان ! أترينه كان يرجعّ صوته هذا الرجيع حين صرّعت هنادى فى ذلك الفضاء العريض !!

1903/3728





1976
20

212-13
11-16-11
1976

1

10 Jan 68

CA ET

حسين طه

دعاء الكروان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037865

892.78
Ha3924daA